المسيحية العربية

تاريخها وتراثها

منذ نشأتها حتى ظهور الاسلام

HISTORY AND LEGACY OF ARAB CHRISTIANITY IN THE PRE-ISLAMIC PERIOD

تأليف

الاب الدكتور ميشال نجم

BY V. REV. MICHEL NAJIM (P.H.D.)

الإهداء

الى الروح الخلاّقةِ التي حلّقت في سماءِ الشرقِ والغربِ وقد رحلت عنا ملتحقةً بأسرابِ المُتّقين.

الى من امتلأت حياتُه بحبِ التاريخ والتراثِ فغرسَ في نفوسِ الكثيرين رؤياه باعثاً فيهم حبَ اللهِ إيماناً ونهجَ حياة.

اليك يا عاطف دانيال أقدّمُ هذا الكتابَ .

المحتويات:

التوطئة: صفحة ٦

التاريخ، الدار العربية، الانتماء العربي، اللغة العربية، التراث العربي.

المدخل: صفحة ١١

البيئة، الوثنية، اليهودية، النّحل المسيحية، التحالف السياسي، الأدب المسيحي العربي؛ اللغة والكتابة، الشعر المسيحي العربي، الأدب المسيحي الديني.

الفصل الأول: صفحة ٣٢

المسيحيةُ في الجنوب العربيِّ قبلَ ظهورِ الإسلام.

السبئيون، المعينيون، الوثنية، اليهودية، المسيحية؛ تأثير الحبشة في مسيحيةِ اليمن، نجاح المسيحية بعد طرد الأحباش، المسيحية في نجران، نهضة دينية في الجنوب العربيِّ.

الفصلُ الثاني: صفحة ٥٤

القبائلُ والمواقعُ المسيحيةُ في الجزيرة.

الوثنيةُ في وسطِ الجزيرةِ وشمالِها، اليهودية في وسطِ الجزيرةِ وشمالِها. انتشار المسيحية، القبائل المسيحية، المواقعُ المسيحية: مكة، أيلة، جزيرة تيران، دومة الجندل، معان، تيماء،

تبوك، وادي القرى، يثرب.

الفصلُ الثالث: صفحة ٧١

المسيحية في الإقليمِ العربيّ:

الفصلُ الرابع: صفحة ٧٨

ممكلة الحيرة اللخمية:

انتشار المسيحية في الامارة اللخمية.

الفصلُ الخامس: صفحة ٩٤

الامارة التنوخية على الطرفِ السوري:

المحالفةُ التنوخية الرومية.

الفصل السادس: صفحة ١٠٠

الصالحيون:

الفصل السابع: صفحة ١٠٣

الغساسنة:

الحارث بن جبلة، المنذر بن الحارث، زوال آل جفنة، تضاعيف إرثهم ودينهم.

الفصل الثامن: صفحة ١١٥

التراثُ المسيحيُّ العربيُّ:

الشعراءُ المسيحيون العرب؛ امرؤ القيس، عدي بن زيد، قسّ بن ساعدة، عنترة بن شداد، عبد المسيح ابن بقيلة، حاتم الطي، يحي بن متى، الشعيرة المسيحيةُ في الشعرِ العربيِّ، التدوين والكتابة، الآباء المسيحيون العرب، الكتابُ المقدسُ في قلبِ العربية، العبادةُ الناطقةُ بالضّاد،

الخاتمة: صفحة ١٢٩

الفهرس صفحة ١٣٢

المراجع صفحة

التوطئة:

أغلت الأمةُ العربيةُ حضارةً ساميةً جاءت تبلّرُ الإكتناهَ الحيّ للدورِ الذي تُمثّلُه في التاريخ البشري، فجدّدتهُ كابراً عن كابرٍ، وكأن عَهدَها أمسى لا ينقضي، مهما جرتْ في مضمارِه من شوائبَ تَسري لاهثةً، حتى يَنْطَلَ فيه نبضُ الفكرِ أحياناً ....

في هذه الأمةِ شعبٌ أخذتْ نفسُه باقتفاءِ دربِ الناصري فكان عيسوياً عربياً وَعى انتماءَه القوميَ والحضاريَ اليها في كلِّ المقوماتِ التاريخيةِ والثقافيةِ، حتى تضافرَ على رفعِ سمكِ هذه الأمةِ قبلَ الإسلامِ وبَعدَه. فما من عاملٍ تاريخيّ أو ثقافيّ أو انتمائيّ يَقِفُ العيسوي عن أنْ يَأْصُلَ في الأمةِ العربية، تماماً كما يأصلُ من هو على الاسلام مُقيم. فالمسيحيةُ دخلت الأمةَ العربيةَ فجرَ انتشارِها أي ساعةَ حلولِ الروح على الحواريين. ففي يومِ امتلائهِم من الروح كان في أورشليمَ عربٌ اهتدوا الى صراطِ الإيمانِ القويمِ، على حدِّ ما جاء في الكتاب (أعمال الرسل ٢:١١). فالمسيحيةُ الناطقةُ بالعربيةِ، كما سنقدّمُ في هذا الكتابِ، تاريخٌ يتّصلُ بالدعوةِ المسيحيةِ في جزيرةِ العربِ قبلَ بزوغِ الإسلامِ بقرونٍ ستة، ويَتَصاعدُ بعد ذلك مع الإسلامِ تصاعداً طبيعياً عِبرَ المحجّةِ التاريخيةِ للتفاعلِ بينهما في هذه الأمةِ الواحدةِ ..

إنّ تاريخَ المسيحيةِ في الجزيرةِ يَكشِفُ عن تراثٍ يُحَقّقُ مفهومَ الكنيسةِ الناطقةِ بالعربيةِ، ليفرغَ أخيراً الى رفعِ لواءِ انتمائها الاصيلِ الى بلادِ العربِ على أعلى ساريتِهِ والاعتزازِ بأغنى معطياتِه.

فالمسيحيةُ بين العربِ، ومَنزِلَتُها من التُراثِ العربي الشاملِ، أنّها اتخذت عواملَ ارتبطت بتشكيلِ هذا الإرثِ العربيِّ من أهمّها:

١ التاريخ:

إنَّ وحدةَ التاريخ العربيّ تُنشىءُ تأصلاً يفضي الى الإعترافِ المتبادلِ بالمُساهمات المسيحيةِ والإسلاميةِ في بناءِ هذه الثقافةِ ويَخرجُ بحقيقةٍ ثابتةٍ: هي أنَّ المسيحيين العربَ في الجزيرةِ العربيةِ وأطرافِها يَنتمونَ الى العربِ العاربةِ الذين تَحدّروا من يعرب ويرْجعون الى قحطان.

٢ الدارُ العربية:

فالدارُ الإسلاميةُ هو اسم يُطلقهُ أهلُ الإسلامِ على الديارِ الإسلاميةِ تمييزاً لها عن الديارِ غير الإسلاميةِ. وهذه الدارُ هي رقعة تتوسعُ مع توسع الإسلامِ، دون أن تكونَ بالضرورةِ عربيةً، غير أنَّ القسمَ الأصليَ منها كان عربياً أو أنّه استعربَ في ظلِ الدعوةِ الإسلاميةِ، فعُرفَ بالدار العربيةِ أو البلادِ العربية. وما هذه الدارُ الاّ دارٌ مسيحيةٌ أصلاً، كانت في اقسامٍ كبيرةٍ منها عربية، وما تبقى كان سريانياً، قبطياً، يونانياً استعربَ بعد انتشارِ الإسلامِ الواسع.

٣ الإنتماءُ العربي:

يُضفي الإنتماءُ المشتركُ على هذه الأمةِ وعياً حيّاً، يَضَعُ الجميعَ في بَوتقةٍ تاريخيةٍ ووجوديةٍ واحدةٍ يتبلّرُ منها شعبٌ عريق. ومهما تكاتفت العَواملُ الخارجيةُ على العصفِ بهذا الإنتماءِ، فإنَّ هذا الوعيَ يَبقَى الردَّ الفاعلَ عليها، فتظلَّ ترجمتُه المعاشةُ استمراراً للتاريخ

وتثبيتاً له.

٤ اللغةُ العربيةُ:

هي محور يدورُ حوله الوعيُ القوميُ العربي، إذْ إنَّ اللغةَ وسيلةُ الفكرِ والتعبيرِ، بدونها ينقطعُ الإفصاحُ عن الفكرِ والإحساسِ والإيمان. فالعربُ المسيحيون أبلغوا بُشرى ايمانِهم بها، فكانوا أسْياداً عظاماً فيها. لذلك ارتبطت اللغةُ العربيةُ ارتباطاً مباشراً بنشاطِ المسيحيين العرب فتساوقت ومصطلحَ إيمانِهم المسيحي فأغنَوها ايّما إغناء، فحازوا قصبَ السبقِ في تطويرِها وإنمائها.

٥ التراثُ العربي :

إنَّ الآراءَ والمفاهيمَ والأنماطَ الحضاريةَ العربيةَ المتناقلةَ جيلاً بعد جيلٍ في تفاعلٍ وتبلّرٍ هي مجدٌ ينحدرُ من الأصولِ الواحدة، مهما تعددت طرائقُ التفكيرِ والمعتقدِ والمفهوم. لذلك يبقى هذا المظهرُ العلميُّ والأدبيُّ والاجتماعيُّ، بداوياً أكان أم حضارياً، رؤيةً تُلهمُ وتتوهَّج.

وبما أنَّ هذه العواملَ تعلّمُ الولاءَ للتاريخ والأمةِ، من غير الإنغلاقِ على أمميّةٍ ضيّقةٍ، فلا بُدَّ أنْ يَنْظُرَ القارىءُ الى الماضي ليأخذَ عبرةً ودرساً من التاريخ المسيحي في العالمِ العربي قبل ظهورِ الاسلام، فيدركَ الظروفَ التاريخيةَ التي تفاعلت مع ظهورِ الإسلامِ في محيطٍ يحملُ طابعاً مسيحياً خاصاً. إنَّ الكشفَ عن التاريخ المشرقي يُنزلُ المسيحيةَ المنزلةَ الحيةَ المرموقة لها في تاريخ العربِ، لإنَّها واقعٌ أصيلٌ يتصلُ بالأساس التاريخي القديمِ ويتصاعدُ مع التصاعدِ التاريخيِّ العربيِّ الواسع.

هذه الآفكارُ بانت خطوطُها واضحةً في فكرِ رجلٍ عرفه الشرقُ والغربُ خلاّقاً، صاحبَ رؤيا، فكان أحدَ البارزين في النهضةِ المسيحيةِ العربيةِ، أعني به الأستاذ الراحل عاطف دانيال. إنَّ كلَّ ما فكرَ فيه وفعلَه لجديرٌ بالمتابعةِ والتدقيقِ. فهو في نبشِ التاريخِ والتراثِ رائدٌ لجيلٍ جديد. فالمسيحيةُ المشرقيةُ عنده حركةُ حياةٍ وبناءٌ متواصل. لقد وضع الاسسَ موضعَها من هذا العملِ فكانَ الرجلَ الفذَّ في هذا المضمارِ. وهكذا لمّا كانَ هذا الكتابُ من موحياتِ فكره أسندَه الى الاستاذِ كريم عزقول الذي دأب جاهداً في رسم خطوطِه الرئيسةِ. بَيدَ أنَّ المنيةَ عاجلت الراحلَ الكبيرَ عاطف، فارتحل والكتابُ يَبتغيه حقيقةً واقعةً حتى النَّزع الآخير ولمّا يكتمل. فأسندت الي العائلةُ هذا الكتابَ وعلى رأسها أخوه السيدُ حليم دانيال، توأمُه في الفكرِ والعملِ والتصميمِ، وابنتُه ندى وارثةُ فكرِه ورؤياه، فعملتُ جاهداً على تحقيق هذه الرغبة. ولمّا كانت نفسي مطبوعة على نهجِ علماءِ كنيستي السمتقيم صراطها، وعلى رأسِهم إمام أحبارها البطريرك إغناطيوس الرابع، وكذلك الحبر الكبير فيليب صليبا الذي أنزلَ المسيحيةَ العربيةَ مركزهَا المرموق في اميركا الشمالية، أخذت نفسي بمراجعةِ العديدِ من المصادرِ والمراجع المختصة بتاريخ العرب، حتى يساوقَ هذا البحثُ تاريخاً عريقاً ما زال طيَّ النسيان عند العديدِ من دارسي تاريخ الأمةِ العربية.

إنَّ رائدي في هذا الكتابِ خدمةُ التاريخ العربي والكشفُ عن الدورِ المسيحيِّ المشرقيِّ فيه، ورفعُ الإجحافِ عن هذا الدورِ الذي أغنى التراثَ العربيَّ وأثراه. لذلك أردتُه كتاباً يقرأه العلماء وغيرُ العلماءِ فغابت عنه المنهجيةُ العلميةُ ظاهراً، الاّ أنَّها قاعدتُه جَمعاً وتقميشاً.

وعليَّ أن أنوّه بمحاولات العديدِ من الباحثين في هذا المضمار، كان قد شرعَ أبوابَها باحثان مستشرقان هما G. GRAPH, & J. S. TRIMINGHAM وصديقان عزيزان هما الأب سمير خليل والدكتور عرفان شهيد. فهؤلاء، وغيرهم من العلماء الذين تجد ثبتاً لأعمالِهم في آخر الكتاب، كفلوا للمسيحيةِ العربيةِ الانطلاق والبروز في الابحاث التاريخية المعاصرة.

كما أتقدّم بالشكرِ الخالصِ الى الصديقِ العزيز الاب يوحنا اسطفان الذي أعطى الكتابَ من ذاتِ نفسِه بسخاء، فوقفَ الجهدَ على مراجعتِه والتدقيقِ فيه.

واللهُ وليّ التوفيق.

المدخل

في فلسطين حيث نشأت المسيحيةُ، وفي الامبراطوريةِ الرومانيةِ حيثُ عرفت الإنتشارَ الواسعَ في ما بعد، كانت اليهوديةُ والوثنيةُ تسودان ، وكانت المعتقداتُ والتقاليدُ المنبثقةُ عنهما تأخذ أعمقَ السبل الى مكنوناتِ أفكارِ كلٍّ من شايَعَهُما واقتَفَى أثَرَهما.

باليهوديةِ كان احتكاكُ المسيحيةِ الاولُ وتخاصُمُها، ومع الوثنيةِ كان كفاحُها وتصارُعها. بدءاً كان انتشارُ المسيحيةِ بطيئاً يعوقهُ عن ذلك اضطهادُ أباطرةِ روما وهجومُ اليهودِ وتحامُلُهم، الى أن جاءَ الامبراطورُ قسطنطين فخلقَ وضعاً جديداً مُنتَهجاً الحريةَ والتسامحِ. أثناءَ حُكمِهِ أباحَ المسيحيةَ وأجازَ لها أن تَنموَ وتَنتَشر. في عام ٣١٣ ميلادية بعد أن انتصرَ على مكسنتيوس وَعَقَدَ في العامِ نفسه اتفاقاً مع ليسينيوس، وأصدر معه مرسوماً عُرِفَ بمرسومِ ميلان، أطلقت بموجبهِ حريةُ الاديان. بناءً عليه، أعطيت المسيحيةُ الحقوقَ نفسَها التي تتمتعُ بها الاديانُ الأخرى بما في ذلك الوثنيةُ ذاتُها. ومن الراجح أنَّ قسطنطين لَم يَعتنقِ المسيحيةَ إلاّ في السنواتِ الأخيرةِ من حياتِه وربما في السنةِ التي قَبَضَ فيها الى خالقِه.

والحدثُ الثاني ذو الشأنِ الجللِ في حكمِ قسطنطين هو نَقلُ العاصمةِ من روما الى القسطنطينية، اي مدينة قسطنطين، التي أمست مركزَ المسيحيةِ ومحطَّ نشاطِها لمدةٍ تتجاوزُ الألفَ سنة. ولأنَّ تأسيسَ هذه العاصمةِ الجديدةِ كان على شاطئِ البوسفور، عندَ مدخلِه المتَّجِه الى بربونتيس (بحر مرمرة)، في موقعِ المُستَعمرَةِ المجريةِ السابقة، بيزنطيا، فالعلماءُ الحديثون أطلقوا عليها اسمَ «الامبراطورية البيزنطية»، التي هي في الحقيقةِ التاريخيةِ استمرارٌ للامبراطوريةِ الرومانية. لذلك أطلقَ العربُ عليها عن حقٍّ اسمَ الامبراطوريةِ الرّومية.

هذا الوضعُ الجديدُ مكّنَ المسيحيةَ من الإنطلاقِ سريعاً، فأصبحت الدينَ الذي عمَّ

مناطقَ الشرقِ الأوسطِ بمُجمَلِهَا، بما في ذلك الدارُ العربية، كالمغرب وليبيا ومصر وسوريا والسودان. وفي الوقتِ نفسه امتدتِ المسيحيةُ شرقاً باتجاهِ آسيا فبَلغت الامبراطوريةَ الفارسية. وكذلك انتهت الى أجزاء مختلفةٍ من شبهِ جزيرةِ العرب.

وحين جاءَ الإسلامُ كانت المسيحيةُ الدينَ المُهيمنَ على مُعظمِ أجزاءِ ما نُسميِّه اليوم بالعالمِ العربي. يَبقى هذا الوصفُ لامتدادِ المسيحيةِ قبل ظهورِ الإسلامِ ناقصاً إنْ لم نُراع حدثاً تاريخياً مهماً يتَّصلُ اتصالاً وثيقَ العُرى بِنشوءِ الإسلامِ في حضنِ هذا العالمِ المسيحي. وأهميةُ هذا الحدثِ التاريخي تقعُ في انتشارِ اتجاهٍ مسيحي خاصٍ في أجزاء متعددةٍ من جزيرةِ العرب،

نتيجةً:

١_ للبيئةِ الجغرافيةِ السهوبيّةِ البعيدةِ القاحلة، بحيث إنَّ المراكزَ المسيحيةَ المهمةَ في العالمِ الحضاري لم تَتَمكَّن من السيطرةِ على ما يسودُ القبائلَ من معتقداتٍ أقتضتها المعطياتُ الجغرافية.

٢_ ونتيجةً للمعطياتِ التاريخيةِ الوثنيةِ البعيدةِ عن وجودِ الإلهِ الأحدِ أو عن فلسفةٍ لامادية تشدّ العربيَّ الى الحقيقةِ اللآمادية.

٣_ ونتيجةً لدمارِ الهيكلِ في اورشليم عام ٧٠ ميلاديةً، وهربِ بعضِ اليهودِ الملتزمين يهوديتَهم واليهودِ المهتدين حديثاً الى المسيحيةِ الى ما وراءِ الحدودِ الشرقيةِ الجنوبيةِ للامبراطوريةِ الرومانية.

٤_ ونتيجةً لامتدادِ النِّحلِ المسيحيةِ المتعددةِ التي تركّزت حولَ طيفيةِ التجسدِ وإلغاءِ اللحمةِ بين اللاهوتِ والناسوتِ التي هي في الفقهِ المسيحي اتحادٌ حقيقيٌ لا يَعرفُ

اختلاطا.

٥_ وأخيراً نتيجةً للتصارع السياسيِّ والعسكريِّ بين الجبارين الروم والفرس، لأنَّ القبائلَ المسيحيةَ استُخدِمت كطلائع الحمايةِ العسكريةِ لكلٍّ من الطرفين، بحيث إنَّ بعضَها شكلَّ حزاماً أمنياً للرومِ، وبعضَها الآخر شكَّل حزاماً أمنياً للفرس.

للتعرفِ الى هذه المسيحيةِ العربيةِ، لا بُدَّ من دراسةِ هذه العواملِ حتى ترتسمَ أمامنا صورتُها الحقيقية.

١ البيئة:

اشتقاقاً تدلُّ لفظةُ العربِ على الباديةِ أو ساكنِها. وهذا هو المعنى الذي أدَّته في العبريةِ (أشعياء ٢١:١٣ ، ١٣:٢٠، وأرمياء٣:٢). وفي القرآنِ جاءت لفظةُ الأعرابِ لتدلَّ على البدو تأكيداً لما جاءَ في سفرِ المكابيين الثاني (١٢:١٠)، حيث جاءتِ اللفظةُ ترادفاً لهذا المعنى. هذه اللفظةُ تدلُّ في اللغاتِ الساميّةِ على الجدبِ والقحولةِ. ولقد أطلقتها المصادرُ القديمةُ على الاماراتِ الواقعةِ في أطرافِ الجزيرةِ. اذاً يرتبطُ اسمُ العربِ بجزيرتِهم بسببٍ من خصائص هذه الجزيرةِ، ولذلك لا بدّ من التعرفِ اليها جغرافيا.

جغرافياً، تُعدُّ كبرى شبهِ الجزرِ في العالم لمساحتِها البالغةِ مليون ميلٍ مربع. لقد كانت حدودُها البحريةُ على جوانبها الثلاثةِ وحدودُ نهرِ الفراتِ في أعلى الصحراءِ السوريةِ سبباً لإطلاقِ اسمِها العربي: «جزيرة العرب».

واذا استثنى المرءُ الجنوبَ العربي وبعضاً من الجبالِ والهضابِ، فالبلادُ في معظمِها

صحارٍ ودارات أهمُّها الربعُ الخالي والنفود. ومع أنَّ الربوعَ الشاميّةَ والعراقيةَ هي على جمالٍ وتحضّرٍ، فلم تكن إلاّ غديراً من غدران الجزيرةِ، وظلالاً من أطلالِها.

والجزيرةُ خمسةُ أقسامٍ:

الأول اليمن في الجنوب.

الثاني العروض وتشمل البحرين واليمامة.

الثالث تِهامة بين اليمن والحجاز

الرابع الحجاز بين نجد وتهامة.

الخامس نجد.

في الجزيرةِ جبالٌ وأوديةٌ وصحراواتٌ وحارّاتٌ. فعلى على طولِ الجزءِ الغربي سلسلةٌ من الجبالِ توازي البحرَ الأحمرَ، ترتفعُ في الشمالِ ثمَّ تنخفضُ في الوسطِ لتعودَ الى الإرتفاع في الجنوبِ. ويمتدُ من وسطِ الجزيرةِ سلسلتان من الجبالِ، كما تقومُ سلسلة من الجبالِ على نحو موازٍ لساحلِ بحرِ عمان. وهناك سلاسلُ من المرتفعاتِ الموجودة في الجزيرةِ، وهضابٌ تكسوها رمالٌ لا ماءَ فيها ولا نبات. ورغمَ أنَّ عدداً من الهضابِ يقطعُ الجزيرةَ فإنَّ مناخَها يَبقَى صحراوياً قاحلاً.

إنّ جفافَ الهواءِ وملوحةَ التربةِ يمنعان النباتاتِ من النموّ نمواً طبيعيا. ولعلَّ أهمَّ المزروعات هو النخيلُ الذي يجدُ منبتاً له في مختلفِ الواحاتِ. ففي هذه الجزيرةِ تُعدُّ نخلةُ البلح ملكةً لعالمِ النباتات، لأنَّ التمرَ هو الخبزُ الجوهريُّ للبدوي.

هذه البيئةُ قسّمتِ السكانَ الى بدوٍ رحلٍ وحضرٍ مقيمين، من غير أن يكونَ الحدُّ الفاصلُ واضحَ المعالم، لأنَّ بعضاً من الجماعاتِ يبدو نصفَ بدوي وآخر نصفَ حضاري.

وما دأبُ العربيِّ حلاً وترحالاً إلاَّ أنْ يركبَ الجملَ طاوياً به الصحراءَ وكأنَّه سيارتُه وأداةُ تطوافِه. فهو يسكنُ خياماً من شعرِ الماعزِ ووبرِ الإبلِ وينطلقُ منها ليرعى غنَمَه وإبله، وليشنَّ الغاراتِ غازياً القبائلَ الأخرى مقاتلاً ومنتهباً في ديارها.

اَلى ذلك قامتِ الهيئةُ الاجتماعيةُ عندَ العربِ على شريعةِ الثأر، فالدمُ عندهم لا يَغسلُهُ الا الدم. إنَّ قتلَ القاتلِ واجبٌ لا بَديلَ منه سوى الدِّيةِ نادراً. فطلبُ دمِ القاتلِ تبعةٌ تُلقى على ذوي القُربى من الأنسباءِ، فإنْ قُتل قتيلٌ لاحدِهم ولم يُدرك بدمِه، لحقَه العارُ والذلُّ؛ وإذا أخفق في بغيتِه، استغاثَ بالعشيرة فتهبُّ لنجدتِه بدافعٍ من العصبيةِ التي هي روحُ البداوة.

الغزو ركنٌ اقتصادي عند أهلِ البوادي وقِوامُ نظامِ الحياةِ الاجتماعيةِ الصحراوية. لقد استحوذَ شغفُ القتالِ على سكانِ أهلِ الباديةِ استحواذاً عظيماً حتى أصبحَ مزيَّةَ الرجولةِ يَسعى اليها كلُّ سيِّدٍ شجاع. فالقبائلُ المسيحيةُ العربيةُ، كبني تغلب، مارستِ الغزوَ والنهبَ دون أن يزعِها حبُّ القريبِ الذي هو أعظمُ الوصايا المسيحية.

المسيحيةُ، كما عُرفت في الجزيرةِ العربية، لعبت أحياناً في ساحتِها بعضُ أهواءِ البداوة، لأنَّ مشاقَ الطبيعةِ القاسيةِ العنيدة، والبنيةَ الاجتماعيةَ، والعلاقاتِ بين القبائلِ لم تَجرِ في مضمارِ الحبِّ المسيحي الى غايتِه. والكنيسةُ في مراكزِها العُظمى لم تستطعْ أنْ تتَّبعَ القبائلَ في ترحالِها لرفعِ حياةِ البداوةِ الى مستوى يكونُ أكثرَ تناغماً مع اتباعِ الحبِ المسيحي الخالص.

هذه الروحُ تتنافى وردَ الطرفِ عن المعتدي تسامحاً واغضاءً على ما نَادى به الكتابُ الالهيُ وعلَّم.

٢ الوثنية:

كانَ مذهبُ عبادةِ الوثنِ ديدانَ أهلِ العربةِ قبلَ ولوج المسيحيةِ في الجزيرة. فالصنميّةُ كانت سمةَ الأديانِ في العالمِ القديم. ولعلَّ العربَ قبلَ المسيحيةِ كانوا طوطميين، يلتفون حول الطوطمِ متخذينه حامياً ومدافعاً عنهم من مثلِ كلبٍ وثورٍ وثعلبٍ. فآمنوا بقوى خفية في النباتاتِ والطيورِ والحيواناتِ.

إنه لمن العُسرِ أنْ نُحدّدَ كيفيةَ تخيّلِهم لحضورِ الآلهةِ في الصنم، لكنّنا نُدركُ أنّهم عدّوا المادةَ الجامدةَ إلهاً، أو أنّها تمثّلُ على الأقلِّ حقيقةً إلهيّة. فما الصنمُ عندهم سوى اقتداءٍ أرضي بحقيقةٍ سماوية. فمعابدُ الوثنِ كانت تستنسخُ أماكنَ الآلهةِ في السماء، والشعيرةُ كانت تُحاكي الشعيرةَ السماوية، فتجعلُ من عبادةِ الأرضِ اشتراكاً في تعظيمِ الآلهة. وهكذا أشركوا مع الله الأحدِ آلهةً أخرى، على حدِّ ما جاء في القرآنِ الكريم. فالإشراكُ هو وثني وليس نصرانياً، لأنَّ المسيحية تؤمن بتنزيهٍ كاملةٍ، كما سنظهرُ في كلامنا على النحلِ.

تاريخياً، نَرى أنَّ الاصولَ الوثنيةَ نشأت في الواحاتِ وليس في البوادي الرمليّة. ولعلَّ هذه الوثنية جاءتهم من الصابئة التي تؤله الكواكبَ ومن الكلدانيين ومن المجوسيةِ المؤمنة بإلهين: النور والظلمة أو الخير والشر.

في الجزيرةِ تركّزت الوثنيةُ أولاً على تقديسِ الحجارةِ والغدران. فأقيمتِ المعابدُ للعكوفِ على الاصنامِ ظانيّن أنَّ عبادتَّها تقرّبُهم الى الله، فكانت مراكزَ للحجِّ يقصُدُها أهلُ البداوةِ تبرُّكاً في ترحالِهم وفي الاحتفالاتِ وكبرى الأعياد. في هذه المراكزِ أقيمت مقاماتٌ من حجارةٍ مقدسة، وحُفرت آبارٌ مقدسةٌ، وغرست أشجارٌ مقدّسةٌ، ونُحتتِ صورٌ مقدسةٌ على الصخورِ لتمثّلَ الآلهةَ أكانت ذكراً أم أنثى.

وأهمّ الكعبات التي كانوا يحجون اليها هي:

كعبةُ ذي الخَلَصة وهي الكعبةُ اليمانيةُ.

كعبةُ مكة حارسةُ الوثنيةِ في العصر القبإسلامي.

في هذه المقاماتِ كان الطوافُ بالمكانِ شعيرةً مقدسة، وكان ذبحُ الحيوانِ وحتى الانسان أضحيةً وقربانا. وكان هناك العديدُ ممن يكهنونَ فيتولون الشعائرِ الدينيةَ ويقدّمون الذبائحَ والقرابينَ ويتعاطون النِجامةَ والفِلاكة، إيماناً منهم بأنَّ الكواكبَ والسياراتِ السماويةَ آلهة.

من بين الآلهاتِ كانت الآلهةُ الامُّ القديمةُ تمثّلُ الالوهةَ في مقامِ مكة.

فاللاتُ هي عشتروتُ العرب، لكنها لم تكن إلهةَ الحبِ والخصبِ، بل إلهةَ الفلكِ عندهم. وهي صخرةٌ مربعةٌ بيضاء منقوشةٌ أقيمت في الطائف. وكانت لها حمى يقصدهُ حجيجُ مكة ويقدّمون لها الذبائح. وتزعمُ الاسطورةُ أنَّه كان رجلٌ يحملُ السويقَ للحجاج، فلمَّا مات عكفوا على قبرِه مدة، ثمَّ اتخذوا تمثالَه، ثمَّ بنوا عليه بنيةً مربعةً وسمّوها بيت الربّة.

والعُزى هي القدرةُ الكليةُ تقابلُها فينيس، لذلك كانت تظهرُ بشكلِ «زهرة». بيتُها في بطنِ نخلةٍ قرب مكة. وكان بالقربِ منها شجرةٌ يُذبح عندها. إنَّها أعظمُ الآصنامِ عند قريش يَزورونَها ويُقدّمون لها الذبائح.

ومناة هي إلهةُ القضاءِ والقدرِ. يقابلُها لدى اليونان إلهة الحظ. وكان صنمُها حجراً

أسودَ منصوباً على ساحلِ البحرِ. وقد جاء القرآنُ الكريمُ على ذكرِ هذه الآلهة فقال:

«أفرأيتم اللات والعزى ومناةَ الثالثةَ الأخرى» (سورة النجم ٢٠ :٢١)، وهي أقدمُ الطواغيث الثلاثة. كانت منصوبةً على ساحلِ بحرِ بين مكة والمدينة.

أما ذو الشرى في البتراءِ فأخذَ شكلَ صخرةٍ كبيرةٍ مربّعةِ الجوانبِ لم تُنحتْ حَناياها.

وكذلك كان هُبَلُ معبودَ العربِ في جوفِ الكعبة. وهو حجرٌ أحمرٌ أو وردي على صورةِ إنسانٍ يده اليمنى مكسورة، فجعلت له قريش يداً من ذهب. وكانوا يستقسمون عنده بالأقداح، ويستخيرونه في أمورِهم وأعمالِهم.

ومن آلهةِ العربِ أيضاً نسر وعوف وهما اسما طائرين يرجعان الى أصلٍ طوطمي. فما ورد في سورة نوح في القرآن لدليل على الآلهةِ الوثنيةِ العربية:

«لا تذَرُنَّ الهتكُم ولا تذَرُنَّ وَدًّا ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسراً» (سورة نوح ٢٣).

ود: وهو ذكر يمثّلُ قوةَ الرجل.

سواع: وهي أنثى تمثّلُ الجمالَ والتغيريّة، ربما كان في اسمِها ما يدلُّ على الشرِّ والهلاكِ.

يغوث: وهو أسدٌ أو ثورٌ يمثّلُ القوةَ البهيميّة.

يعوق: وهو حصانٌ يمثّلُ السرعة.

ونسر: وهو نَسرٌ يُمثّلُ حِدةَ البَصرِ والتّبَصُر.

إنَّ فكرةَ اللهِ في الوثنيةِ كانت دائماً تجسيميةً، تخلعُ عليه صفاتِ المخلوقِ البشريِّ، وتشبّهُهُ بالانسانِ. وهذا ما كان يدفعُ الإنسانَ دفعاً الى عبادةِ المادةِ والحيوانِ وكلِّ ما احتواه الكون.

وبما أنَّ إيمانَ العربِ بُنِيَ على وجودِ الأرواح في المحسوساتِ لذلك اعتُبرت الأشجارُ والآبارُ والكهوفُ والحجارةُ وسائطَ يتقربُ بها البدويُّ الى المعبود. فالبئرُ مثلاً على ما تختصُ به من مهماتٍ حميدةٍ في الصحراءِ أصبحت موضع عبادةٍ عند البدوي.

ويرجعُ تقديسُ بئرِ زمزم الى ما قبل الإسلام.فمن هذه البئر القائمةِ الى الكعبةِ في مكة شربت منها هاجرُ زوجة إبراهيم الخليل، عندما ظمئت هي وابنهُا إسماعيل. والحادثةُ تذكرُ أنَّ هاجرَ جعلت تهرولُ بين الصَّفا والمَروة التماساً للماءِ فلما أتمتِ السَّعيَ سبعاً، رجعت الى ولدِها يائسةً فوجدتهُ يفحصُ التربةَ بقدمِه ووجدتِ الماءَ هناك، فارتوتْ وأروت إسماعيلَ.

أمَّا الاغوارُ فكانت عند الأعراب كهفاً مقدساً تأوي اليه الآلهةُ والأرواحُ. أما الإلهُ بعل وهو سيدُ الخصبِ فقد كان روحَ المياهِ عند العربِ.

وأدنى من الآلهةِ كانت الملائكةُ والجن. فالجنُّ أرواحٌ خفيةٌ يكونون أحياناً أشراراً وأحياناً أخياراً. فالأعرابي تصوَّرَ الصحراءَ آهلةً بالكائنات ذات الطبائع الوحشية، فشخَّص فيها أهوالَ القفرِ وآفاتهِ وحيواناتِها المفترسةِ. لذلك يَزْعَمُ العربُ أنَّ الغُولَ نوع من الشياطين يظهرُ للناسِ في الفلاةِ، فيتلوَّن لهم في صور شتَّى فيغولُهم مضلّلاً ومُهلِكاً. كانت العربُ تؤمنُ بمخالطةِ الجنِّ للانسِ في السكنى والإستهواءِ والمؤاكلة والزواج، ولهم فيها شعرٌ

وأخبارٌ كثيرةٌ.

كان تأثيرُهم على الانسانِ كبيراً من خلالِ التّعويذةِ والسّحرِ والشعوذة. وكان هناك خوفٌ عامٌ من العينِ الشريرةِ ادّى الى كتابةِ العُوذةِ التي تَدفَعُ في نَظَرِهم شرَّ العينِ. وبسببِ من ذلك انتشرَ العرّافون في الجزيرةِ يكشفُونَ الغيبَ وكأنّهم وسطاء بين هذا العالمِ وعالمِ الارواح. كانوا يؤمنون بزجرِ الطيرِ وبالكهانةِ والعرافةِ والهامة، ويعوّذون أطفالَهم بسنّ ثعلبٍ وسنّ هرة خوفاً من الخطفةِ والنظرة.

ومنهم من عبدَ النارَ، أو قال بالإثنينة، أو بالدهريةِ. وهكذا كانت المجوسيةُ في تميم، والزندقةُ في قريش، ولعلّها المانويةُ التي تقولُ بإلهِ النور وإلهِ الظلام، أو لعلّها الدهريةُ التي تُنكرُ الخالقَ والآخرة.

في هذا المناخ الصنمي جاءتِ البشارةُ المسيحيةُ تدعو الى الهربِ من عِبادةِ الصنم. فالدعوةُ المسيحيةُ في الجزيرةِ كانت عبادةً للإلهِ الأحدِ الحيِّ القديرِ بكمالٍ ووفاء، الى حد أن عبادةَ إلهٍ آخرٍ كانَت صنميّةً.

إنَّ نَهجَ المسيحيةِ لم يتّبع العنفَ عبرَ تَدميرِ الأصنامِ يمنةً ويسرة، إنّما طلبَ طريقَ تطهيرِ القلبِ من كلِّ فكرٍ صنميٍّ، أولاً وعبادةَ الإلهِ رفعاً وتَنزيها. أمّا التطهيرُ العامُ للوثنيةِ خارجَ إطارِ حياةِ الجماعةِ المؤمنةِ فعُدَّ نتيجةً لانتشارِ بُشرى الخلاص، لا للعنفِ والقسرِ. فالمسيحيةُ لم تُكره غيرَ المؤمنين على تطهيرِ معابِدِهُم، بل دعتهم الى تطهيرِ قلوبِهِم، يقيناً منها أنَّ الإكراهَ يبقي الوثنيةَ في باطنِهم راسخةً وفي ظاهرِهم هاجعة.

هذا النّهجُ لازمَ معايشةَ أهلَ الوثنِ مع كلِّ مضاعفاتِ حياتِهم الخلقيّة، كزواج الأبِ بابنته. ولكنّهم لمّا آمنوا، بلغوا الإطمئنانَ القلبيَ والعقليَ وحطّموا الصّنمَ، كفّوا عن عبادته، وبدّلوا نهجَ حياتِهم الروحيةِ والخلقية. واذا حدثَ أنْ غَلبَ نهجُ معايشةِ الوثنيين بضعفٍ في المُعتَقدِ المسيحيِّ انكفأ بَعضُ المؤمنين وارتدوا الى بعضٍ من الوثنيّةِ قلباً وروحا. وقد أحدثَ مثلُ هذا الوضعِ تأثيراً في نُفوسِ بعضِ المسيحيين العرب حملَهم أحياناً على

الاحتفاظ ببعضِ تقاليدِ قلةٍ من القبائلِ المسيحيةِ، وسَمَتها الصنمِّيةُ بميسمِها فكان عِثاراً لا يُقالُ إلاّ بعملٍ تبشيري مُجدٍّ لم تَعرِفهُ جزيرةُ العربِ إلاّ في ما نَدَر.

بيدَ أن تأثيرَ المسيحيةِ على الجزيرةِ العربيةِ كان كبيراً لانَّ العديدَ من القبائلِ غير المسيحيةِ شك في الوثنيةِ، حتى أمست الصنميةُ في بعضِ الاماكن على وشكِ الانحلالِ. ولا ريبَ في أنَّ المسيحيةَ كان لها دورٌ فعّالٌ في توجيهِ الفكرِ العربيِّ الى الوحدانية.

٣ اليهودية:

إنه لَمِنَ الأهميةِ بمكانٍ أنْ نُشيرَ الى وجودِ اتجاهين بين اليهودِ المُهتدين الى المسيحيةِ:

١_ اولئك اليهودُ الذين إعترفوا بأنَّ المسيحَ نبيٌّ، لكنَّهم أنكروا عليه لقبَ ابنِ الله. وبذلك ألّفوا جماعةً مُنفَصلةً تَقَعُ في مُنتصفِ الطريقِ بين اليهوديةِ والمسيحية.

وأهمُّ اتجاهٍ في هذه الجماعةِ هو اتجاهُ الإبيونيين الذين أكّدوا أنَّ المسيحَ والروحَ القدسَ خُلِقا في السماوات، وأنَّ المسيحَ جَاءَ فَسكنَ في آدم، ثمَّ تَرَكهُ الى حين، وأخيراً عادَ فَسكنَ فيه ثانية. هذه الشيعةُ المسيحيةُ تهوَّدت، فاستخدمت انجيلَ متى الحواري، ورذلت بولسَ الرسول وعدتّه من أصحابِ الرِّدةِ.

مارسوا ختانَ اللحمِ، وتمثّلوا عادات أهلِ الشريعةِ الموسويةِ، حتى كانت أورشليمُ الأرضيةُ بيتاً لله عندهم. انقسمت شيعتُهم الى فئتين:

_فئة اعترفت بميلادِ عيسى من العذراءِ.

_فئة انكرت حلولَ الروح القدس على مريم فقالوا إنَّ عيسى إنَّما ولدَ مثلنا بشراً بالمناسلةِ.

إنَّ العالمَ اليهودي، كما هو معروفٌ، كان مُتأثراً في القرنِ المسيحي الإولِ بمَوجةٍ عنيفةٍ من الحماسِ السياسي والمسياني. فالفكرُ اليهوديُ تمركزَ حول مَجيءِ العهدِ المسياني الذى فُهم فهماً أرضيا. وبسببٍ من هذا الفكرِ فإنَّ عدداً من المسيحيين شاكلَ في معتقدِه وتصرُّفِه العقيدةَ والشعيرةَ اليهوديةَ المهيمنةَ في ذلك العصر، فتكلَّفَ العاداتِ والمسالكَ اليهوديةَ حتى أمسى مسيحياً متهوِّداً. ولعلَّ منهم الحنيفية التي هي خليطٌ من النصرانيةِ واليهودية.

٢_ اولئك اليهودُ الذين طلبوا الهِدايةَ المسيحيةَ وأقاموا عليها. إلاّ أنّهم تعلّقوا ببعضِ أساليبِ الحياةِ اليهودية، من دونِ أن يُملوها شروطاً على من بَلَغهُ هَديُ المسيحيةِ من الوثنيين. فبَعدَ أن اجتمعَ الرسلُ والشيوخُ في أورشليمَ لينظروا في مسألةِ اختتانِ الوثنيين وحفاظِهم على شريعةِ موسى تقرَّر ألاّ يُضيَّقَ على من آمنَ من الوثنيةِ بالمسيحيةِ، وألاّ يُلقى عليهم من الأعباءِ سوى اجتنابِ ذبيحةِ الأصنامِ والدمِ والميتةِ والزنى.

عندما أرغمَ اليهودُ على هجرِ أورشليم بعدَ دمارِها انتقلت الكثرةُ الكاثرةُ الى الجزيرةِ العربية فأعطى بعضهُم الولاءَ لنزعةِ الابيونيين، لكنَّ القسمَ الآخرَ منهم اندمجَ في الجماعاتِ المسيحيةِ المنتشرةِ في الامبراطوريةِ الرومانية.

هكذا يُمكنُ القول بأنَّ اليهوديةَ تركَت ختمَهَا وأثرهَا العميقَ في الفكرِ المسيحي الذي سادَ جزيرةَ العرب. فالفكرُ المسيحيُّ في الجزيرةِ العربيةِ صيغَ في قوالبَ سامية ويهودية. والثابتُ لدى الباحثين أنَّ المقولاتِ اليهوديةَ في الفكرِ والمصطلح كان لها الفعلُ والتأثيرُ في إبرازِ صورةِ المسيحيةِ وتمثيلِها للذّهنِ العربي. ويَظهَرُ لهم عمقُ هذا التصريح في معرفةِ النبيِّ محمد ودرايتِه بهذه الصيغ كما ترابطَت في جزيرةِ العرب.

وما يجبُ أن يحفظَه القارئُ في الذهنِ فيما يتصلُ بتاريخ التفاعلِ المسيحي الاسلامي هو أنَّ المسيحيةَ عاشت في الجزيرةِ العربيةِ بعيداً عن تبعة التقاءِ المسيحيةِ بالعالمِ الهليني وكذلك بعيداً عن الإتجاهِ اليهودي الخاصِ الذي نشأ في الاسكندريةِ في إطارِ الهلينيّة.

كان الجنوبُ العربي مركزاً لليهودِ، كما تغلغلت جماعاتٌ يهوديةٌ كثيرةٌ في واحاتِ الحجازِ فكانت منهم عشائرُ كثيرة صبغت الجزيرةَ بصبغةٍ يهوديةٍ بلغت العربَ غير اليهود. فكانت اليهوديةُ في يثرب وفدك ووادي القرى وخيبر وتيماء واليمن، فمنها قبائل يهودية استعربت كالنضير وقريظة وقَينُقاع، ومنها قبائل عربية تهوَّدت أو تهوَّد بعضها كحمير وكندة وكنانة والحارث بن كعب.

٤ النِّحلُ المسيحية:

إنَّ أشدَّ القوى الماحقةِ في الوسطِ المسيحي هي النِّحلُ المتعددةُ وعلى الاخصِ النِّحلُ العُرفانيّةُ والمسيحانية. فالعرفانيةُ كانت حركةً وبالأولى اتجاهاً أقدم من المسيحية. فهي جاءت استتباعاً للتلفيقيةِ التي تَرمي الى استخلاصِ الآراءِ المُستَحسَنةِ لديها من مصادرَ مختلفة، منها اليهودية والوثنية والهلينية والفلسفات والميثولوجيات المشرقية. وهكذا خرجتِ العرفانيةُ بموقفٍ فارقٍ وبمناهجَ مختلفةٍ لفكِّ عقدةِ الشرِّ والمصيرِ الإنساني. لقد كانتِ المدارسُ العرفانيةُ في مُجمَلِها مثنويةَ الإتجاهِ تقولُ بمبدأين أصليين متقابلين وتوجدُ صدعاً عميقاً بين عالمِ الروح وعالمِ المادة. فالأولُ في نظرِها سامٍ مقدس، أمَّا الثاني فشريرٌ أثيم.

فالعرفانيون المسيحيون كانوا أولَ من فَصَلوا بين يسوعَ وبين المسيح. اللهُ عندهم لم يَتَجسّد بَشَراً، إنما بَدَا أنَّه كذلك، فاشتَبَهَ عليهم الأمر.

وفي بعضِ المناهج العرفانيةِ يَنزِلُ المسيحُ الالهيُّ على يسوعَ الانسانِ عند المعموديةِ ويَتركُهُ قبلَ الصلب. نحلةٌ عرفانيةٌ أخرى زعمت أنَّ المسيحَ حَمَلَ جسدَه من السماءِ ومرَّ في مريم العذراءِ مرورَهُ بقناةٍ أو بأنبوب.

معظمُ الادبِ العرفاني جاءَ ليعزِّز تعليماً مشبعاً بمواد تعتمدُ قدرةَ الخيالِ المُبدعةِ ونوعاً من التجسُّدِ غيرِ الحقيقي. هذا النوعُ الادبيُّ، المشحونُ بالتِّيهِ، والضلالِ، وبالإختلاقِ الآسطوري، لاقى قبولاً مُنقَطِعَ النظيرِ لدى المسيحيين غيرِ المُثقّفين، لأنّه كان يُعَبِّرُ عن اهتماماتِهِم ومواضيعِ إعجابِهِم ومُثُلِ التصرُّفاتِ التي يُكْبِرُونَهَا في حياتِهِم وتوقعاتِهِم بالنسبةِ الى الحياةِ المُستقبلة.

إنَّ غزارةَ هذا النوعِ من الإنتاجِ الأدبي ساهمت في انتشارِ العرفانيّةِ في بلادٍ عديدةٍ من بَينِها الجزيرة العربية.

هكذا فإنَّ نحلاً مسيحيةً متعددةً خلّفت علامةً وسِمَةً في المسيحيةِ التي انتشرت في حوضِ البحرِ المتوسطِ وفي الجزيرةِ العربيةِ بشكلٍ خاص. وفي التّرقيةِ اللّاهوتيةِ التي حدثت في القرنِ الرابعِ، تَرَكت بعضُ النِّحلِ الأثرَ في حياةِ بعضِ أبناءِ الكنيسة، وكانت الجماعاتُ الوثنيةُ واليهوديةُ في المدنِ تناصرُ كلَّ حركةٍ انشقاقيةٍ وتؤيِّدُ كلَّ نحلةٍ تَبتَغي أنْ تُخاصمَ سلطانَ الكنيسةِ المستقيمةِ المُعتَقَد.

فأكبرُ مشكلة لاهوتيةٍ في القرنِ الرابعِ كانت الآريوسية التي أنكرت على ابنِ اللهِ الالوهةَ وتماهيه مع أبيه. فالمُسَلّمَةُ الأساسيّةُ لهذا المنهج هو إثباتُ فَرادةِ اللهِ وتَساميه، بصفته علةَ جميعِ الأشياء. وبما أنَّ كيانَه فريد ومتعالٍ وغيرُ مُنقسم، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يتّصلَ بجوهَرِه وماهيّتِه. فلو وُجِدَ من يُشاركُهُ طبيعَتَه الإلهيةَ لوُجِدت هناك مثنوية في الجوهرِ الالهيّ. لذلك كلُّ ما يوجَدُ في الكونِ يَجب أنْ يَخرُجَ الى عالمِ الوجودِ بفعلِ الخلقِ الالهيِّ فقط.

بناءً على هذه المُقَدَمة المنطقية قال الآريوسيون إنَّ المسيحَ مخلوقٌ من العدم خلقاً يستتبع عدم معرفته بجوهرِ أبيه. وبالتبعيةِ قالوا إن الآب لم يولد، أما الابنُ فإنَّه ولِدَ من الآب في زمنٍ معيّن. وهكذا قال زعيمهم نفسه:

«كان هناك وقتٌ لم يكن الابنُ فيه موجودا».

ومن جهةٍ أخرى قال النساطرة إنَّ اللهَ الكلمةَ موجودٌ في ذاتِه على نحوٍ منفصل، وان ناسوتَه موجودٌ أيضا بمعزلٍ عن لاهوته. ولذلك نسبوا أفعالَ الرب يسوع أثناء إقامتِه على الأرضِ الى الطبيعةِ الانسانيةِ وحدها، ونسبوا ما يليق بالالوهةِ الى الكلمةِ وحده. وبذلك لم ينسبوا هذين النوعين من الافعالِ الى الشخصِ ذاتِه. فالمسيحُ عندهم هو شخصُ اتحادِ اللاّهوتِ والناسوت. أمّا شخصُ هذا الاتحادِ فلم يكن شخصَ الكلمةِ أو شخصَ الناسوتِ، إنّما جاء نتيجةَ اتصالِ اللاهوتِ بالناسوت. وبذلك قَسَموا طبيعتي المسيح، فنسبوا الناسوتَ الى طبيعتِه التي أخذها من مريم العذراء، ونسبوا اللاّهوت الى كلمةِ الله؛ وهكذا رفضَ النساطرةُ أنَّ من وُلِدَ من العذراءِ متماهٍ مع الآبِ بلاّهوتِه وأنَّه إلهٌ بالطبيعةِ.

تغلغلتِ النسطوريةُ في أماكن متعددة من الجزيرةِ العربيةِ، وعلى وجه التحديد في الحيرةِ، فكان لها الأثرُ العميقُ في الفكرِ العربي الدينيّ.

هناك نحلةٌ أخرى نشأت مع أوطيخا الذى قال بطبيعةٍ واحدةٍ في المسيح ووصلَ الى الاعتقادِ بأنَّ اللاّهوتَ أو الناسوتَ قد ذابا في المسيح فتكون عنصرٌ ثالث، وقال إنَّ اللاّهوتَ ابتلعَ الناسوتَ كابتلاعِ البحرِ لنقطةِ الماء.

فهو لم يدرك كيف أنَّ اللهَ الكلمةَ صار متحداً ببشرٍ وُلدَ من مريم. وهكذا علمت هذه المونوفيزية أن للمسيح طبيعةً واحدة، بمعنى أنه كان الهاً من غير أن يكونَ انساناً كاملا.

الى جانب هذه النحل الكبرى كانت هناك نحلٌ مسيحيةٌ أخرى قالت بالمبدأ نفسه فرفضت أنَّ من ولد من الآب قبل كلِّ الدهورِ ومن هو متماهٍ مع الآب هو نفسُه وُلدَ في آخرِ الايامِ من مريم العذراء فصار بالطبيعة بشراً متماهياً معنا.

من أهمّ هذه النحلِ التي انتشرت في الجزيرة هي نحلةُ الابيونيين التي ازدهرت في القرون المسيحية الاولى وانتقلت فيما بعد الى شرقي الاردن والجزيرة نفسِها. اعتقدت هذه النحلةُ أن يسوعَ هو الابنُ البشري لمريم ويوسف وأنَّ الروح حلَّ عليه في المعمودية.

وهناك نحلةُ المريميين التي تؤلّهُ مريم العذراءَ التي شاعت في مناطق من الجزيرةِ العربية.

لقد وصِفت هذه النحلُ بأنّها حرباءُ تُسرعُ في تغيير لونِها وفق الظروفِ المتعددة، وذلك لانها لم تأخذ تَجسُّدَ كلمةِ اللهِ بجدٍّ كبير. فهي لم تقدم على الاعتقادِ بأنَّ المسيحَ شخصٌ الهيٌ ففتشت عن مخلصٍ انساني يتلقى العونَ من الله.

إنَّ الكنيسة بذلت أقصى الطاقة في نضالها ضد هذه النحل فعلّمت:

أنَّ جوهرَ اللهِ يبقى وراءَ نطاقِ كلِّ المقولاتِ الفكريةِ على نحوٍ جذري. ولذلك يبقى وراء كلِّ تحديدٍ من أي نوعٍ، بل وراء إسنادِ أي اسمٍ له، الى حدّ أنَّ اللهَ هو فوق كلِّ جوهرٍ وكلِّ اسمٍ.

أنَّ الله لم يكنْ في أي وقتٍ من الأوقاتِ خلواً من حياةٍ وكلامٍ، وذلك بمنزلةِ النارِ التي هي ذات صفاتٍ ثلاث: اللهيب والحرارة والنور، ومنزلة النفسِ التي تتألفُ من عقلٍ ونطقٍ وحياةٍ. وإنْ كانَ الإلهُ متعالياً على الجميعِ، فإنَّ نطقَه أي كلمتَه وحياتَه أي روحَه كاملانِ من كاملٍ. فاختلافُ الخواصِ لا يجعلُ الجوهرَ مختلفاً.

أنَّ المسيحَ الهٌ تجسدَ فصار بشراً فنُسبت اليه كلُّ الخاصيات الطبيعيةِ التي تنتمي الى أبيه في السماء والى أمه في الارض. وهكذا جاهرت أنَّ المسيح تجسد بشراً من دون أي

تحولٍ أو تغيُّر في لاهوته حتى يشركَ طبيعَتَنا البشريةَ في القوى الالهية.

في هذا الصراع المسيحاني مارست النحلُ المتعددةُ تأثيرَها على المسيحيةِ في الجزيرة العربية، لانَّها عاشت في الصحراءِ فلم يَصِلْها سلطانُ الكنيسةِ ولانَّ النموذجَ الاصليَّ للفكرِ المسيحي لم يبلغْ بعضَ الجماعاتِ العربيةِ هناك. ولانَّ الكنيسةَ الرسميةَ لم تُفلح في ملاحقةِ هذه الجماعاتِ في ترحالِها، فكانت القوى الفاعلة في حياتهم هي النحلُ المتعددةُ على أطرافِ الجزيرة العربية. وهكذا كان الفكرُ الذى قبلته هذه الجماعات العربية متأثراً بهذه النحلِ من غير أن يفقدَ أصالتَه عند بعضِها. ومن الإنصافِ القولُ بأنَّ من آمن بالطبيعةِ الواحدةِ من المسيحيين انقسموا الى فريقين:

الفريق اللاخلقيدوني (الذي يُطلق عليه أحياناً الفريق اليعقوبي نسبة الى يعقوب البردعي اسقف الرها ٥٤١، ٥٧٨) الذي سيطر بين عرب الشام والعراق، فكان قويمَ المعتقد، متجذراً في الصراطِ الايماني الصحيح، رغم اختلافه في المصطلح عن الكنيسةِ الخلقيدونية.

الفريق النسطوري: الذي تغلغل في أجزاء مختلفة من الجزيرةِ، وتكاثر في الحيرةِ فأطلق عليه، لقبُ «العباديون» تمييزاً لهم من الوثنيين، لانَّهم كانوا عباداً لله.

وهكذا لم تكن المسيحيةُ التي شاعت في عددٍ من القبائلِ صافيةً خالصةً، لانَّهم أخذوها عن المبتدعين المارقين، إلاّ أنَّها كانت في أنحاء أخرى قويمةَ المعتقدِ، ساهمَت في بنائها العائلتان الأرثوذكسية الخلقيدونية والأرثوذكسيةُ اللاخلقديونية.

٥ التحالفُ السياسي:

كان للتحالف السياسي شأنٌ في تاريخ بعضِ القبائلِ المسيحيةِ المستوطنةِ أو المتنقلةِ على أطراف الجزيرة العربية، لانَّ الفرسَ والروم حاول كلٌ من جهتِه انشاءَ ممالكَ عربية

متحالفة مع واحدةٍ من الامبراطوريتين لتمثّلَ دورَ الحِزام الامني أو الممالك الحاجزة.

فما كان يقلقُ هاتين الامبراطوريتين هو الوضعُ في الحدودِ الفاصلةِ بينهما وبين الجزيرة العربية حيث كان انقضاضُ القبائلِ العربية على أطرافهما يندفعُ اندفاعاً متتالياً عليهما. ويظهر لنا تأثيرُ هذا التهديدِ المستمرِ لحدوديهما اذا ذهبنا ندرسُ علاقةَ هاتين الامبراطوريتين بالممالكِ العربية في حيزِ الحرصِ على وجودِهما من وجهةِ ردِ الغزواتِ لقاءَ الزامهما العملي بالاتفاقات الموضوعة بين كلٍّ من الطرفين ولاسيما المالي منها. استتباعاً لذلك أنشئت في جانبي الصحراء السورية ممالكُ متعددة يمكن تقسيمُها الى فئتين:

الاولى عربية مسيحية متحالفة مع بلادِ الرومِ وهي الممالك الاتية:

التنوخيون، وهم من شعوب مملكة الحيرة في العراق.

الصالحيون، وهم سادوا بادية الشام شمالي البصرة بمعاهدة مع الامبراطورية الرومية.

الغساسنة، او آل جفنة، وهم استوطنوا بلاد حوران وشرقي الاردن وفينيقيا اللبنانية وفلسطين الثانية والثالثة.

الثانية عربية مسيحية متحالفة مع بلادِ الفرسِ وهي مملكة اللخميين أو مملكة المناذرة:

وهم الذين قطنوا سورية وفلسطين والعراق، وأسسوا دولتهم في الحيرة فعاشوا في حروب متواصلة مع الغساسنةِ لتحالفِهم مع البلاط الفارسي لصيانةِ الحدود.

هذه القبائلُ التي اعتنقت المسيحيةَ عاشت في حروبٍ متواصلةٍ مع القبائلِ الاخرى تنفيذاً لما عُهِدَ اليهم في التحالفِ السياسي العسكري مع كبرى الامبراطوريات في التاريخ. وهذا الموقفُ السياسي نقلهم الى وضعٍ يُضاد ما التزموه في المسيحيةِ التي تُحرّمُ ممارسةَ

العنف والحرب. فالمسيحيةُ، في جوهرِها، عيشٌ يتناغم مع محبة الله والقريب. انّ العنفَ والحرب والثورة تتنافى والمسيحيةَ التي تنادي بالمحبة الخالصةِ للقريب والعدو على حدٍ سواء وبالتضحية بالنفوسِ لاجلِ كلّ بشر. انّ القتلَ كبوةُ الموت في المسيحية، فهو عائقٌ دون بلوغِ الحب الالهي، لانّ من لا يُحب لا يثبت فيه الخلود الالهي. عندما تتجه البغضاءُ الى اهل المنحاة، اي الذين ليسوا بأقارب، ابتغاءً للبقاءِ وتدعيماً لتحالف فهي تمنع المسيحي عن ارضاءِ الله.

وهذا ما حدث فعلاً مع قبائلِ الحزامِ الامني التي أكرِهت على الحربِ دفاعاً عن تحالفٍ سياسيٍّ يؤمّن لها متطلباتُ العيشِ، ويصونُ لها استمرارَها قَبَلياً.

بهذا النوع من المسيحيةِ احتكَ الاسلامُ وتفاعل ومن خلالِه ارتسمت ملآمح المسيحية في عيني النبي محمد، وأمّا الوقعُ المستحوذ بفعاليةٍ من جانبِ المسيحيةِ في الجزيرة العربيةِ على تكوين الاسلآم فهو ليس في القصد التحليليِّ لهذا الكتاب. ولعلَّ القارىءَ قادر على استخراج النتيجةِ وتوليدِها مما قدَّمنا ومما سنعرض من أحداث.

٦ الأدبُ المسيحي العربي:

ولئن كانت المسيحيةُ في الجزيرةِ جاءت مصطبغةً بهذه الألوان المتعددة فإنّها انبتت فكراً عريقاً وأدباً ذا رفعةٍ وشأن في تاريخ الفكر العربي. إنّا سنفرد به فصلاً يتناول هذا الانتاج الأدبي المهم، فنكتفي هنا بعرضٍ سريعٍ لخطوطِه العريضة، أهمّها:

اللغة والكتابة:

عرفت اللغةُ العربيةُ تطوراً كبيراً في تاريخِها اللغائي فكانت متعددةَ الأشكالِ كثيرةَ اللهجات، الى أن نشأت اللغةُ الفصحى فوحّدت كلَّ شيءٍ تدريجاً فكانت السيادةُ في آخرِ

الامرِ الى القريشية. غير أن اللغةَ العربيةَ جاءت في العصرِ القبإسلامي في عائلتين رئيسيتين:

لغة الجنوب.

ولغة الشمال.

إن معرفَتَنا بهذه اللغاتِ تعودُ الى النقوشِ التذكاريةِ التي كثرت في الجزيرةِ والتي نقشها كتاب محترفون مسيحيون ذكروا في معظمها اسمَ الله وأسماءَه الحسنى وصفاته. ففي الجنوبِ نشأ الخطُّ المسندُ، وفي الشمالِ الخط النبطي الارآمي، لأنّ أهلَ الشمالِ المسيحيين تحضروا بالحضارةِ الآراميةِ فاستخدموا الآراميةَ في أحاديثِهم وفي نقوشهم بينما ظلوا يتكلمون العربيةَ. واقدمُ النقوشِ الشماليةِ الجنوبيةِ كانت في قسمٍ منها مسيحيةً منتشرةً في أماكنِ الوجودِ المسيحي.

الشعرُ المسيحي العربي:

لقد تفوق الاعرابي في ذلك العصرِ في ميدانِ القريض، فكان الشعرُ عنده هو التعبيرُ الفذّ عن أفكارِه. ورغم تفاوتِ اللهجاتِ فإنّ القصيدةَ كانت تحفظُ وتُتلى دون أن تُكتب، لأنّ المشافهةَ كانت الوسيلةَ الفريدةَ للتراثِ الفكري وليست المكاتبة، ولأنّ السوادَ الأعظمَ جهلَ القراءةَ والكتابةَ. ومن بين هؤلاء الشعراءِ كثرة كاثرة مسيحية أرّخوا في كثيرٍ من الأحيان الأحداثَ المسيحيّةَ وأفصحوا عن فكرِها وشعيرتِها. جمع عدد من العلماءِ شعرهم فكان غزيراً جداً. من أهمِّ الشعراء المسيحيين:

عدي بن زيد، يحي بن متى، قس بن ساعدة، عبد المسيح بن بقيلة.

الأدبُ المسيحي الديني:

يفترضُ العلماءُ والمؤرخون وجودَ ترجمات عربيةٍ للكتاب المقدس وللنصوص الطقسية، لإنَّ علماء الفقه المسيحي كانوا كثيرين. ومنهم من يؤكدُ وجودَ هذا الأدب الديني استناداً الى معلومات تاريخية ثابتة. وهذا أيضا ما سنتناوله في هذا الكتابِ بحثاً وتفسيراً، لإنَّ الاستخدامَ الطقسيَّ ينبىءُ بوجودِ هذا الأدب.

سنتناول أيضا أسماء من حضروا المجامعَ الدينيةَ من العلماءِ العرب الذين وردت أسماؤهم في سجلاتِ المجامع ومحاضرها، مما يؤكدُ وجودَ من تضلّعَ من الايمانِ المسيحي ومن مَثّلَ العربَ في أهمِّ المؤسساتِ الكنسيةِ التي عقدت للنظر في أمورٍ مهمة في الالهيات.

وهناك مجالاتٌ علميةٌ أخرى فاقَ فيها المسيحيون العربُ أقرانَهم في الطبِ والعلومِ وغيرها، فكانوا السّباقين في ميادين الفكرِ والآدبِ والعلمِ في العصرِ القبإسلامي.

وعلى أن تعددَ المناحي يتكاثرُ في هذا المضمارِ فما نقصدُ اليه في هذا الكتابِ العامِ عن المسيحيةِ العربيةِ في مطلع انتشارِها هو عرضٌ لتاريخ المسيحيةِ في الجزيرةِ منذ انتشارِها حتى ظهور الاسلام والتبادل التأثيري بين خواصِ المسيحيةِ والبيئةِ ابتغاءً للتعرّفِ الى المسيحيةِ التي نشأت بين العرب..

الفصلُ الأولُ:

١ المسيحيةُ في الجنوبِ العربيِّ قبلَ ظهورِ الإسلامِ:

ما يُقْصَدُ بعبارةِ « الجنوب العربي » هو الجزءُ الجنوبيُّ من شبهِ جزيرةِ العربِ الذي يَضُمُّ بلادَ اليمنِ وكلَّ ما جاورها من مناطقَ وأقاليم. لقد ظنَّ بعض من كتابِ العصورِ الوسطى أنَّ بلادَ العربِ السعيدة هي اليمنُ قصراً. فلاحَ لهم أنَّ وَصْفَهَا بالسعيدةِ لهي محاولة لتفسيرِ لفظة «اليمن» اعتقاداً منهم أنَّ مصدَرَهَا هو اليُمنُ والبركةُ، لانَّ البلدَ يفوحُ عطراً وطيوباً، غيرَ أنَّ ما يُغالبُ ذلك في الرجاحةِ دلالتُها على اليدِّ اليُمنى. فسُميت يَمناً لوقوعِها الى من ينظرُ الى جنوبِ الحجازِ والبلادِ السوريةِ الى شمالِه.

تميَّزَ هذا الجزءُ من جزيرةِ العربِ عن سواه في تمتُّعِه منذ القديمِ بكيانٍ سياسي خاصٍ على وجهٍ كَفَلَ له الاستقلالَ والحريةَ، من دون أن يتوقفَ عن التفاعلِ مع الاقاليمِ الأخرى ثقافياً وَحضارياً. ويَظهَرُ لنا صدقُ هذا الرأي اذا ذهبنا ندرسُ تاريخَهُ العريقَ في حيِّزِ الفكرِ من وجهةٍ جغرافيةٍ وحضاريةٍ خالصةٍ.

إنَّ الجنوبَ العربيَّ إقليم مُمرِع خصيب في طرفِ أرضٍ جدباء، وموقع مريع نَعِمَ بتطورٍ تجاري كبير. كانت أرضُ الجنوبِ العربي مهيأةً لتزدهرَ فيها حياةُ نباتاتٍ وأشجارٍ واسعةٍ بفضلِ مياهِ الأمطارِ وطرقِ الريِّ الصناعية. فازدحمت مروجُهم بالإبلِ وبقطعانِ الماشيةِ، واكتست أرضُهم بأشجارِ المرِّ واللبانِ والقرفةِ والنخيلِ. فكانت أشهرَ موقعٍ في الجزيرةِ لغناه باللُّبانِ والمرِّ والقرفةِ واللآذن.

فمنذ القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ كانت المنتوجاتُ المتعددةُ يَجري تبادُلُها من اليمنِ واليه باتجاهِ جزيرةِ العربِ وباتجاهِ الحبشةِ ومصرَ وباتجاهِ الهندِ أيضاً. في ذلك الوقتِ كان التبادلُ التجاريُ يَتِمُّ على ظهورِ الدوابِ، الا أنْ تَمَّ ترويضُ الجملِ في القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ فنشطتِ الحركةُ التجاريةُ نشاطاً واسعاً. سبقَ الجنوبيون أهلَ الشمالِ في المدنيةِ

فأنشأوا حضارةً وطنيّةً راقيةً دامت لهم العصورَ الطوال. تمتعَ أهلُها بالغنى والثراءِ فوُصفَ اهلُها بأنهم أغنى شعوبِ الأرضِ، اذ فرشت بيوتُهم بأفخرِ الطيالسِ وبنادرِ التحفِ والأواني المزخرفةِ.

اختلفَ سكانُ اليمنِ عن غيرِهم من سكانِ الجزيرةِ فكانتْ لهم قوانين وبنية اجتماعية خاصة. وكانت لهم لغة ساميّة خاصة وهي لغةُ سَبأ وحمير. كانت هذه اللغةُ قريبةً من الحبشيةِ والعربيةِ الشماليةِ. أما نقوشُهم المنثورةُ على الأبراج والهياكلِ والنُصُبِ والآحجارِ فهي مكتوبة بخطٍ يُسمى الخط المسند. وهو الخط المخالفُ لخطنّا هذا. منه نشأ الخط الحبشيُّ وخطوطُ اللهجات العربيةِ الشماليةِ القديمة.

يقسمُ النسّابون الأعربَ الى دوحتين:

العربُ العرباءُ أي الصُرَحاءُ الخُلّص.

العربُ المُتعرِّبة اي الدخلاءُ.

فالعرباءُ هم أهلُ اليمنِ الذين تسلّلوامن قحطان أو يقطان . وفي عُرفِ بعضِهم أنّ بني قحطان انقسموا الى فرعين:

حمير وأكثرُهُم أهلُ حضرٍ.

وكهلآن وأكثرُهُم أهلُ وبرٍ.

أما المتعرِّبةُ فهم الحجازيون والنجديون وأهلُ تدمر من سلآلةِ عدنان وهو من أبناءِ اسماعيل.

استقرَ بين العلماءِ أنه كانت هناك خمسُ ممالك هي:

مملكةُ معين وكانت حاضرتُها معين في الجنوبِ اليمني.

مملكة سبأ وعاصمتها مأرب.

مملكة قتبان في الجنوبِ الغربي لسبأ وعاصمتُها تِمنَع قربَ بابِ المندبِ.

المملكة الأوسانية تقعُ جنوبي قتبان.

مملكة حضرموت وحاضرتُها شَبوة.

ان أهمَّ دولتين ينبغي أنْ نَتَروّى في أحداثِهما هما المملكة السبئية والمملكة المعينية اللتان تزامنتا ردحاً من الزمنِ.

السبئيون :

إنَّ البحثَ في عادياتِ الجنوبِ العربي أثْبَتَ أنَّ أهلِ سبأ شَغَلوا الجنوبَ العربيَّ الذي يُعرَفُ اليومَ ببلادِ اليمنِ على أنَّ مملكةَ سبأ تأسَّسَتْ فيه قبلَ ثمانيةِ قرونٍ من مجيءِ المسيح فقد استمرَّ سعيُهَا التاريخي ولمَّا يَتَوقَّفْ سريعاً. فظلَّ تاريخُها متعاقباً ردحاً من الزمنِ بَلَغَ مطلعَ القرنِ الثاني المسيحي. فالمملكة ، وثباتُها في التعاقبِ التاريخي، أنَّها كانت أعظمَ فرعٍ بين فروعِ السلالةِ الجنوبيةِ وعلى وجهِ التحديدِ في جنوبي نجران ابتداءً من سنة ٧٥٠ ق م، وأنَّها تابعتْ محجتَهَا بسلالةٍ حميريةٍ ثانيةٍ ظهرتْ في مطلعِ القرنِ الثاني، ودامَ بقاؤها حتى النصفِ الثاني من القرنِ السادس.

استطاعَ ملوكُ سبأ أنْ يَبسطوا السيادةَ السبئيةَ على الجنوبَ العربي حينما تأوَّجوا في القوةِ، فَجَعَلوا المَعَينين خضعاءَ لهم. في البدءِ جَعَلوا لزعيمِهم لقبَ المكّرب وأضفوا عليه لقبَي الكاهنِ والملكِ، لكنَّهُم جرَّدوا منه الكهانةَ لاحقاً. إنَّهم بَلَغوا مِنَ الحضارةِ مقاماً رفيعاً، فأشادوا المبانيَ الراقيةَ والسدودَ الفنيَّةَ كسدِ مأرب. وبذلك كانت سبأ عظيمةً في الفنِ والتجارةِ على حدٍّ سواء. وتَتَجلَّى أهميتُهُم التاريخيةُ اذا دَرَسْنَا علاقاتِهم وصلاتِهم الحضاريةَ مع الشعوبِ الأخرى من خلالِ النصوصِ التاريخيةِ وخاصةً من نصوصِ العهدِ القديمِ.

إنَّ لفظةَ سبأ ذُكرتْ أربعاً في العهدِ القديمِ وذُكِرَ شعبُها ثلاثاً فيه. في سفرِ أيوب تَرِدُ حادثةَ وقوعِ أهلِ سبأ على البقرِ التي كانت تَحْرثُ والآتنِ التي كانت تَرْعَى بجانبِها

وأخذها وقتلِ الغلمانِ بحدِّ السيفِ وإفلاتِ أيوب من أيديهم (أيوب ١: ١٥). ويرى أشعياءُ أنَّ اللهَ جعلَ سبأ شعباً من بين الشعوبِ التي جَعَلَها اللهُ فديةً عنه (أشعياء ٤٣ : ٣). فأهلُ سبأ كانوا أهلَ غنى ويسرٍ وتجارتُهُم تُضاهي تجارةَ مصر والحبشةِ (أشعياء ٤٥: ٤). وَيَصِفُهَا يوئيلُ النبيُّ بأنَّها أمةٌ بعيدة عن اورشليم في معرضِ كلامِه على شرائِهِم العبيدَ الفينيقيين والفلسطينيين من بني يهوذا (يوئيل ٣ : ٨).

كتابُ التكوين يُصَنِّفُ سبأ بين اولادِ كوش مع حويلة وسبتة ورعمه وسبتكا(تكوين ١٠ : ٧) كما يُصَنِّفُهُم كذلك سفرُ الأخبارِ الأول (١ : ٩).

وفي سفرِ المزاميرِ يَرِدُ ذكرُ ملوك سبأ مع ملوكِ ترشيش والجزائر و هُم يُقَرِّبون لملكِ أورشليم العطايا ويَحملون اليه الهدايا (٧٢ : ١٠). إن وَصْفَهُم كأمةٍ غنيةٍ بعيدةٍ عن أورشليم لواضح في نصوصِ العهدِ القديمِ المذكورةِ أعلاه. يَروي سفرُ الملوكِ الأولِ أنَّ ملكةَ سبأ جاءت سليمان لاقامةِ علاقاتٍ تجاريةٍ فدخلت أورشليمَ في موكبٍ عظيمٍ من جِمالٍ مُحَمَّلةٍ أطياباً وذهباً كثيراً وحجارةً كريمةً (١ ملوك ١٠ : ١ ،١٠).

لقد دلَّت الحفرياتُ الأثريةُ على وجودِ أكثرَ من عشرين ملكاً بين القرنين التاسع والسادس قبلَ الميلاد.

هذا العرضُ التاريخيُّ من شأنِه أنْ يوصلَنَا الى النقطةِ الأساسيةِ للبحثِ وهي الدولةُ الحميريةُ في حقبتيها الأولى والثانية.

إنَّ الدولةَ الحميريةَ الأولى بقيت حتى سنة ٣٠٠ ميلادية. أما عاصمتُها فكانت ظفار التي كانت تُعْرَفُ قبلاً باسمِ ريدان. إنَّ الدولةَ الحميريةَ الثانيةَ التي ظهرت عام ٣٠٠ ميلادية تميزت بقبولِها المسيحيةَ ديناً واعتقاداً.

ونعرفُ من المصادرِ أنَّ بطليموسَ سنة ٢٧٠ ق.م. أسطولاً بحرياً ليقومَ بالمهمةِ التجاريةِ التي يقومُ بها أهلُ اليمن فأحدث اضطراباً في شؤون السبئيين الإقتصاديةِ. وهذا التهديدُ الإقتصاديُّ استمرَّ عبرَ التاريخ، فجهَّزَ إليوس جالوس والي الرومان على مصرَ في سنة ٢٤ ق.م حملةً فشلت فشلاً ذريعاً. لذلك اتَّجَهَ الرومانُ الى الملاحةِ في البحرِ الأحمرِ

مستولين على ميناءِ عدن لتفشيلِ تجارةِ اليمنيين . وظهرَ لهم خصم ثانٍ وهو ملوكُ الحبشةِ الذين حاربوهم ردحاً من الزمن. إنّا سنتناولُ هذه الحقبةَ بالتفصيلِ لأهميتِها في التاريخ المسيحي في الجنوبِ العربي.

المعينيون :

إنَّ لفظةَ « معان » العربية التي أصبحت فيما بعد «معين» تدلُّ على الماءِ الجاري على وجهِ الارض. وهذه اللفظةُ نفسُها تدلُّ على الدولةِ المعينية التي كانت قائمةً في الجنوبِ العربي وعاصمتُها قارناو. تدلُّ الرقمُ المعينيةُ على وجودِ مستعمرات قربَ العلا وتبوك كانت مراكزَ تجاريةٍ وبريدية. لكنّ ما لبثت أنْ خَضَعت هذه المملكةُ للملكةِ السبئيةِ وفق ما أشرنا سابقاً.

إنَّ نظامَ الحكمِ في مهين كان ملكياً، فكان الملكُ يُدعى مزود، ومعناه المقدس. أما المدن المعينية فكان يحكُمُها رؤساءُ لهم مكانة سامية فدوِّنت أسماؤهُم في سجلات المعابدِ. كان مجتمعُهم أرستوقراطيا يستخدمُ العبيدَ، وبالوثنيةِ كانوا متمسكين فأجلّوا الكِهانةَ ايّما إجلالٍ.
وُجدَ ذكرُ المعينيين في مصر والعراق وسوريا، وقد جاء المؤرخون الأغارقةُ والرومان على ذكرِهم. فوَصَفَهُم بطليموس بأنّهم شعب قوي وقال ديودوروس بأنهم كانوا يأتون بالافاويةِ. وهذا دليل على نشاطهم الاقتصادي حتى بعد زوالِ دولتِهِم.

الوثنية:

كان الجنوبُ العربيُّ كلُّه للقمرِ عابداً ، فالبارزُ الذي يَرَاه الباحثُ هو الأسماءُ المختلفةُ التي اتخذَهَا القمرُ عند الفئاتِ المختلفةِ. فهو تارةً يُسَمَّىَ الإلهُ سين ، وطوراً يُسَمى وداً (اي حُبّاً) كما كان الأمرُ عند المعينيين أو القمه(الواهبُ الصحةَ) عند السبئيين. وكان القمرُ زوجاً للشمسِ ومتقدماً عليها. وعشترُ هو ابنهُما وهو يُقَابِلُ الزهرةَ أو عشتار. نَتَجَ عن

هذا الزواج اجرام فلكية متعددة اتخذَهَا أهلُ الجنوبِ آلهة. ولعلَّ اللات الواردةَ في القرآن هو اسم آخر عند العربِ الشماليين لآلهةِ الشمسِ عند الجنوبيين.

شابهت قصةُ الخليقةِ عندهم قصةَ الخليقةِ عند الكلدانيين والمصريين والاغريق في العصورِ الوثنيةِ. فشماش وعشتروت في بابل هما شمس وعثر في اليمن.

آمن اليمنيون بأبديةِ النفسِ وبانفصالها عن الجسدِ ساعةَ الوفاة، كما آمنوا بحقيقةِ الثوابِ والعقابِ. وأعتقدَ البعضُ منهم بتقمُّصِ النفس وتناسخِها، تماماً كما آمنَ الهنودُ بذلك.

اليهودية:

تَقَدَّمَ ذكرُ انتشارِ اليهوديةِ في الجنوبِ العربي في مطلع الكتابِ، إثرَ خضوع اليهوديةِ لادريانوس وطيطس وتدميرِ أورشليم سنة ٧٠ م. فبعد تشتتِ اليهودِ وتفرُّقِهم بعثرةً، جاءَ بعضُهُم الجنوبَ العربي مستوطناً. فتزايدوا فيه كمّاً وعدداً حتى خلّفوا فيه علامةً وسمةً. لقد مارسوا النفوذَ الملموسَ في المملكةِ الحميريةِ فأدّى ذلك الى تهويدِ عددٍ من الجنوبيي العرب بما فيهم الملوك الحميرين أنفسهم، بحيث أمسى الجنوبُ العربيُّ ، على حدِّ قولِ بعضِ المؤرِّخين، مُجَمَّعاً يهودياً كبيراً. وما هو ثابت تاريخياً لبيِّن في إقامةِ علاقاتٍ مميزةٍ بين الملوك الحميريين واليهودِ عطفاً عليهم وتأييداً لهم ودعماً لنشاطاتِهم، مما دفعَ بعض المؤرِّخين المعاصرين الى تسميتِهم بالملوكِ الحميريين المُتَهَوِّدين. فَسَاعِدُ اليهودِ اشتدَّ في الجنوبِ بحيثُ أنَّ آخرَ ملوكِ الحميريين كان يهودياً. ولذلك نرى ذا نواس يعتنقُ اليهوديةَ ويحاولُ القضاءَ على المسيحيةِ في نجران.

المسيحية :

يُحيطُ بتاريخ المسيحيةِ في مراحِلِهِ الأولى بعض من الغموضِ والإبهامِ، لانَّ النصوصَ والوثائقَ لا تُزَوِدُنَا بالبيِّناتِ التاريخيةِ.

بناءً على ما أسلفنَا فيه قبلاً، لا بُدَّ أنْ تكونَ المسيحيةُ قد دَخَلَتِ الجنوبَ العربيَّ إثرَ خضوعِ اليهوديةِ لأدريانوس وطيطس وتدميرِ اورشليم على يدِ الأخيرِ سنةَ ٧٠ م، والتجاءِ اليهودِ ومن بينهم اليهود الذين تَنَصَّروا الى هذا الجزءِ من الجزيرةِ العربيةِ.

ولعلَّ لفظةَ الهندِ تدلُّ على جزيرةِ العربِ تبعاً واشتمالاً . فعبارةُ بلادِ الهندِ كما استخدَمَهَا بعضُ المؤرخين في الحقباتِ الأولى للدولةِ الرومية أشارتْ عندهم إمَّا الى:

الى بلادِ الحبشة.

أو الى الجنوبِ العربي.

أو الى بلاد الهندِ نفسِها.

إذا ما استطلَعْنَا التاريخَ المسيحيَّ فيما يرتبطُ ببلادِ الهندِ لَوَجَدنَا أنَّ يوسيبوس القيصري كبيرَ المؤرخين المسيحيين ذكَرَ عن بانتينوس مؤسسِ مدرسةِ علمِ الكلامِ في الإسكندريةِ أنَّ هذا الفقيهَ المسيحيَّ بَلَغَ بلادَ الهندِ مبشراً. وفي بيانِهِ التأريخي يوردُ يوسيبوسُ المؤرِّخُ أنَّه عندما أدركَ هذا المُبَشِّرُ المُتَضلِّعُ من فقهِ المسيحيةِ الهندَ وَجَدَ بعضَ الذين ألمّوا بانجيلِ متى وقد بَشَّرَ به من قبلُ برثلماوس أحَدُ الحواريين هناك تاركاً النصَّ الاراميَّ لمتَّى بين أيديهم، فَحَفِظوه الى حين قدومِ بانتينوس الفقيه. لعلَّ في النصِ علاقةً بين تركِ النصِّ الارآمي بين أيديهم واليهودِ المُتَنَصِّرين في الجنوبِ العربي، لأنَّ لغةَ النصِّ هي لُغَتُهُم المُكتَسبةُ بعدَ الأسرِ البابلي.

أمَّا المؤرخُ اللاتينيُّ والناقلُ الشهيرُ روفينوس تيرانيوس (٣٤٥ ، ٤١٠) الذي عَرَفَ تقليدَ بنتينوس لإنَّه تَتَلْمَذَ لديدموس الضريرَ ونقلَ تاريخَ يوسبيوس الى اللاتينية أوردَ في تاريخه أنَّ برثلماوس الحواريَّ بَشَّرَ في تخومِ بلادِ الهند. ولإنَّ العلاقاتِ التجاريةَ كانت ناشطةً بين بلادِ الهندِ والجنوبِ العربي فلا يُستَبْعَدُ بأنْ تَدُلَّ اللفظةُ على الجنوبِ العربيِّ وأنَّ انتقالَ البُشرَى المسيحيةِ الى الهندِ عَنَى الإنتقالَ الى الجنوبِ العربيِّ.

نَقَلَ عبدُ الملكِ الحميريّ المعروفِ بابنِ هشام (ت ٨٢٨ م) في كتابِهِ الشهيرِ «سيرة الرسول» وكذلك محمد بن جرير المعروفُ بالطبريّ (ت ٩٢٣ م)، ذلك الموسوعيُّ المقرىءُ في كتابِه «تاريخُ الأممِ والملوكِ» حكايةَ الزاهدِ فيميون ونشاطِهِ التبشيريّ في نجران تلك المدينةِ المُهِمّةِ في شمالي اليمنِ على حدودِ عسير والتي كانت حمى أهلِ الطبيعةِ الواحدةِ من المسيحيين بعد اضطهادِهِم في بلادِ الروم. ولقد هدى هذا الزاهدُ الكثيرين الى سواءِ سراطِ النصرانيّةِ بعدَ إصداءِ القبائلِ العربيّةِ له في سوريا. وسيجيء الكلامُ في نهايةِ هذا الفصلِ مفصّلا على المسيحيةِ في نجران.

وإذا ما استطلعنا الادبَ السريانيَّ فإنّه يُحيطُنَا بأمرِ المسيحيةِ في الجنوبِ العربيِّ علماً بحيثُ يُسْتَفَادُ منها أنَّ للمسيحيةِ في الجنوبِ العربيِّ بيعاً متعددةً في أماكنَ مختلفة. فيوحنا الأفسسي وهو مؤرّخ يعقوبي عاش بين سنة ٥٠٧ م و سنة ٥٨٦ م يَذْكُرُ أنَّ أمَةً مسيحيةً أبْلَغَت هديَ المسيحيةِ الى الحميرين في عام ٣٠٥ ميلادية.

على أنَّ واجبَ التقميشِ العلميِّ يَقتَضي الباحثَ أن يُنَوّه في هذا الصددِ بتأريخ أسْهَمَ في نقلِ موقفِ النِّحلةِ الآريوسيةِ التي أنكَرَت لاهوتَ المسيح ، وهو موقفُ المؤرّخ الآريوسي فيلوسترجيوس (٣٦٨،٤٣٩م) الذي دوّنَ تاريخَه الكنسيَّ متناولاً القرنَ الرابعَ الميلادي . في كتابه التأريخيِّ هذا يوردُ فيلوسترجيوس تقريراً عن مهمةٍ تبشيريةٍ أسنَدَها الامبراطورُ قسطنطيوس الاول (٣٣٧م،٣٦١م) الى ثيوفيلوس أندس الآريوسي. والظاهرُ أنَّ هذا الرجلَ الملقبَ بالهندي كان رهينةً مقدمةً الى الامبراطوريةِ ، فاكتسبَ العاداتِ وطرائقَ العيش القائمةِ في الأمبراطوريةِ. ولعلَّ موطنَه الأصليَّ هو جزيرةُ سوقطرة الواقعة في البحر، وقد يكون ذلك سبباً في انتخابِه رئيساً لهذه البعثةِ التبشيريةِ.

أما البعثةُ فجهَّزَها الأمبراطورُ خيرَ تجهيزٍ فحمّلها بالهدايا الثمينةِ الى ملك حمير. لذلك فإن قائدَ البعثةِ حاول استمالةَ ملكِ الحميريين الى المسيحيةِ الآريوسية، لكنَّه أخفقَ في هذه المهمةِ الأخيرةِ بسببٍ من تأثيرِ اليهوديةِ القويِّ على هذا الملك. غيرَ أنَّه أفلَحَ في إنشاءِ بيعةٍ في عدن وبيعتين في أرضِ حمير. وتُوردُ بعضُ المصادرِ أنَّ هذا الملكَ أباحَ له أن يُشيدَ بعضَ الكنائسِ في ظفار وعدن وهرمز لتخدمَ التجارَ الأجانبَ ومعتنقي الآريوسيةِ من أهلِ الجنوبِ

العربيِّ. إنَّ هذه السفارةَ النصرانيةَ تستحقُ الذكرَ كحدثٍ تاريخيٍّ مهمٍ في دخولِ المسيحيةِ الى الجنوبِ العربيِّ، لانَّ هذا الاتجاهَ النصرانيَّ كان عاملاً في إدخالِ نحلةِ إنكارِ لاهوتِ المسيح اليه وفي جعلِ المسيحيةِ تَتَّجِهُ اتجاهاً غيرَ قويمٍ من خلالِ امبراطورٍ مالَ الى الآريوسيةِ بقوةٍ، ولانَّ الجنوبَ العربيَّ أمسى محطَّ أنظارِ الأمبراطوريةِ الرومية وحماها الاول.

يسوقُ بطريقُ القسطنطية القديس فوتيوس (ت حوالي ٨٩١) الاقتباسَ من المؤرخ الآريوسي فيلوسترجيوس تدعيماً فيوردُ الحادثةَ ، لكنْ عبر الاشارةِ الدائمةِ الى الدينِ الحقِّ وليس الى النحلةِ المسيحية فيقول:

«أرسلَ قسطنديوس موفدين الى اولئك الذين دعيوا من قبلُ أهلَ سبأ وصاروا يُعرفون اليوم بالحميرين. وهم قبيلة تتحدَّرُ من ابراهيم وزوجته قطورة (سفر التكوين ٢٥:١) وتُقيمُ في منطقةٍ يُسَمِّيها اليونانيون arabia magna felix التي تطاولُ الجزءَ المتباعدَ من الأقيانوس. أما حاضرتُها فهي سبأ ، تلك المدينة التي انطلقت منها ملكة سبأ لرؤيةِ سليمان ... وعلى ذلك أرسل قسطنطيوس جماعةً من السفراءِ ليستحثَّهم في مشايعةِ الدينِ القويمِ ... وعلى رأسِ هذه الجماعةِ أقيمَ ثيوفيلوس الهندي. وهكذا إبَّانَ وصولِ ثيوفيلوس الى أهلِ سبأ بذَلَ السعيَّ في إقناعِ اهلِ القبيلةِ في اعتناقِ المسيحيةِ والكفِّ عن مخاتلاتِ الوثنيّة. إثرَ ذلك أكرِهَ خداعُ اليهودِ المألوفُ على الإنكفاءِ الى الصمتِ العميقِ، عندماأثبت ثيوفيلوس مراراً بمجاهراته المُدهشةِ حقيقةَ الإيمانِ المسيحي. وهذه المهمةُ أثبتت نجاحَها في آخرِ المطاف. فتَحوَّلَ زعيمُ القومِ بقناعةٍ عميقةٍ الى الدينِ الحقِّ».

يختلفُ الباحثون في تفسيرِ دوافعِ هذه البعثةِ، فمنهم من يَعزونها الى أسبابٍ دينيةٍ بحتةٍ، ومنهم من يعزونها الى عواملَ دينيةٍ بسببِ التنافرِ بين الرومِ والفرسِ وتنافسِهما في مدِّ السلطةِ وبسطِ السيادةِ، إذ في اعتناقِ اليمنِ للمسيحيةِ تكون حليفةً له ونصيرةً.

تأثيرُ الحبشةِ في مسيحيةِ اليمن:

كان التَّمَاسُ الجغرافيُّ بين إفريقية والجزيرةِ عند بابِ المندب سبباً في تواصلِ العلاقاتِ بين الحبشةِ والجنوبِ العربيِّ. وهذه العلاقاتُ تراوحت بين نزوحٍ من الجنوبِ العربي الى الحبشةِ وبين نزوحٍ أو احتلالٍ للجنوبِ من قِبَلِ الأحباش. والحبشةُ هي البلادُ الإفريقيةُ الفريدةُ التي نَعِمَت باستقلالٍ سياسيٍّ نادرٍ.

يذكرُ المؤرخ روفينس في تاريخه الكنسيِّ خبرَ إجزاء فرمنتيوس (٣٠٠ ، ٣٨٠) وايديسي الصوريين بشرى المسيحية الى سكانِ الحبشة. فقالَ إنَّ شابين لبنانيين من مدينةِ صور هما فرمونتيوس واديسيوس أرسلا الى الحبشةِ يحملان الدعوةَ المسيحيةَ اليها فنالا حظوةً عند الملكِ والملكةِ لانَّهما خَدَماهُ زمناً. وتقديراً لإخلاصِهما حُرِّرَا من عبوديتهما. ولما استأذنا الملكةَ في الرحيلِ الى صور أقبلت عليهما بمواظبةٍ وتعلُّقٍ للبقاءِ وإدارةِ المملكةِ حتى يصبحَ وليُّ العهدِ راشداً. وبعد أنْ وافقاها في الرأيِ قام فرمنتيوس بتشجيعِ المسيحيةِ وبناءِ الكنائسِ. ولمَّا بلغَ وليُّ العهدِ رشدَه عادا الى صور، لكنَّ فرمنتيوس انتقلَ الى الإسكندريةِ وأخبرَ أثناسيوسَ بما حدثَ في اليمن فسقَّفه الأخيرُ على الحبشةِ. بعدها ازدهرتِ المسيحيةُ خيرَ ازدهارٍ فكان تأثيرُ الحبشةِ في الجنوبِ العربي تأثيراً مسيحياً أيضاً.

اشتغلَ الأحباشُ بالتجارةِ مع الهندِ وسيلآن ، فكانت سفنُهم تجيء محمَّلةً بالبضائعِ الهنديةِ الى موانئها على البحرِ الأحمرِ . فكانت الى جانبِ الجنوبِ العربيِّ الخطَّ التجاريَّ للمنطقةِ. اشتهرت الحبشةُ أيضاً بالذهبِ واللؤلؤ واللبانِ والعاج. وإبتداءً من القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ الى القرنِ الأولِ للميلادِ تأثَّرَ مجتمعُها واقتصادُها ودينُها بالسبئيين. وفي عهدِ مملكةِ أكسوم إزدهرت ألحبشةُ اقتصادياً وثقافياً. فترابطَ تاريخُ الجنوبِ العربيِّ بتاريخِ الحبشة.

لقد دعمتِ الدولةُ الروميةُ الحبشةَ فتمكنت من حفظِ نفوذِها في الجنوبِ العربيِّ. ولذلك تكاثرَ غزوُ الأحباشِ للجنوبِ العربيِّ الذي كان ظاهرةً تاريخيةً متكررةً. ففي عام ٣٤٠ استولى الأحباشُ على الجنوبِ العربيِّ حتى سنة ٣٧٠، وهذا الاستيلاءُ يُعرَفُ تاريخياً بالاحتلالِ الحبشيِّ الأولِ للجنوبِ العربيِّ. لكنَّ مسالةَ الانتماءِ الدينيِّ للنجاشيِّ الحبشيِّ المعروفِ بالأعميدا والذي قامَ بغزوِ الجنوبِ العربي واحتلالِه تبقى مسألةً غامضةً في النصوصِ التاريخيةِ المتيسِّرة. ففي استقراءِ أحداثِ هذا الغزوِ الحبشيِّ لا نجدُ دليلاً تاريخياً

نُثبِتُ فيه عن يقينٍ الدافعَ الدينيَّ للغزو، بل بالأولى هناك ما يحملُ الباحثَ على تثبيتِ الدافعِ الإقتصاديِّ، لأنَّ الجنوبَ العربيَّ كان مركزاً تجارياً مهماً بين الهندِ والشاطىءِ الافريقيِّ الشرقيِّ.

ويَظْهَرُ لنا أنَّ النجاشيَّ الذي خَلَفَه واسمُه عُزانا كان مسيحياً دَأَبَ جَاهداً في نشرِ الإيمانِ، فَأعلَنَ المسيحيةَ ديناً رَسمياً للدولةِ عام ٣٥٠م. وهذه الدعوةُ لمْ تُدَاخلنا بالشكِ في انتشارِ المسيحيةِ منذ تولّيه الحكم، إنْ لمْ تكنْ قد بَدَأت في الإنتشارِ على أيامِ سَلَفِهِ الأعميدا على يدِ دُعاةٍ جاؤوا الجنوبَ العربي مُبشّرين.

ومَهْمَا يَكُنْ منْ شَيءٍ فإنّ دخولَ المسيحيةِ الى الجنوبِ العربيِّ لم يَدُمْ ازدهارُهُ طويلا، لإنَّ الاسرةَ الحُميريةَ السابقةَ عادتْ فاستولتْ على الجنوبِ العربي طاردةً الاحباشَ منه، وذلك عام ٣٧٠ م. وخلاصةُ ذلك، كما تَرويها المصادرُ العربيةُ أنَّ المَلكَ الحميريّ يريم يرحب بن شمر برعش الشهير (٢٧٠ ، ٣١٠) الذي قَذَفَهُ الأحباشُ دحوراً من كلِ جانبٍ كان لابنيه ملكي كرب وأبو كرب اسعد الدورُ الأكبرُ في إطلاقِ البلادِ من الأسرِ الحبشي. وبذلك استرجعت حمير سيادتَها واسترد ملوكُهُم ألقابَهُم الى ما يقارب ٥٢٥ م . في رُقم اكسوم التي يَرجَعُ عهدُها الى القرنِ الرابع نَجِدُ أنّ ملكَ الحبشةِ يُدعى « ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلح وتهامة».

وما هذه الغارةُ بالفريدةِ من نوعِها ولا هي آخرُ عهدِهم بالغاراتِ على الجنوبِ العربي، لأنّهم نَجَحوا أكثرَ من مرةٍ في احتلالِه . أبقت لنا الرُقمُ أسماءَ تسعةٍ من ملوكِ حمير في تلك الحقبةِ ومنهم مَن ذكرتهُم الآدابُ العربيةُ اللاحقةُ بلقبِ تُبّع الملكي وهؤلاء هم التبابعةُ المعروفون الذين بَدَأنا بالتحدثِ عنهم . فعندما فرَّ شمر يرعش بعد هزيمتِه أمامَ الأحباشِ الى يثرب محطِّ الشتاتِ اليهودي في الجزيرةِ العربية مثّلَ شيئاً من الشعيرةِ اليهودية، حتى نَعَتَهُ المؤرخون بأنّه الملكُ المتهودُ والمبشّرُ باليهودية .

نجاحُ المسيحيةِ بعد طردِ الأحباش:

بعد طردِ المُغيرِ يُصيبُ انقطاعُ الأخبارِ الموثوقةِ الباحثَ بجهالةٍ فيصبحُ على ما يؤرِّخُ غافلاً ، الى أنْ يَحُلَّ الإضطهادُ بالمسيحيين عام ٥٢٣ على يدِ الملكِ الحميري الشهير « ذا النواس». فلم يبقَ لنا من تلك الحقبةِ التي دامت مئةً وخمسين عاماً سوى الماعِ طفيفٍ نعيِّن من خلالِه الوجودَ المسيحيَّ حَدْساً وَظَنّاً. منها ذلك الأثرُ العائدُ الى عام ٣٧٨م الذي نُقِشَ عليه أنَّ الملكَ ملكي كرب أقامَ معبداً لإلهِ السماءِ أو ربِّها. وكذلك الأثرُ الذي خلّفه الملكُ شرحبيل عام ٤٥١م المنقوش عليه عبارة:

«بنصرِ الإلهِ سيدِّ السماءِ والأرض».

ويُحَدِّثنَا بعضُ الإخباريين العربِ أنَّ عبدَ الملك عبد كلال كان على دين عيسى مقيماً.

يؤكّدُ المؤرخُ ثيودور القارىءُ الذي عاش في القسطنطينيةِ في اوائلِ القرنِ السادسِ أنَّ النصرانيةَ لاقت نجاحاً في الجنوبِ العربيِّ على عهد أنسطاسيوس الأمبراطور الرومي (٤٩١، ٥١٨) ، وأن المسيحيين أقاموا عليهم اسقفاً يُرشدُهُم ويرعى أمورَهُم. ولعلَّ هذا الاسقفَ هو سلوانس عمُّ يوحنا الذيكرينومينوس.

الى ذلك يجيءُ كتابُ اسقفِ بطنان يعقوب السروجي (ت ٥٢١) ذلك الكاتب والشاعر السرياني الكبير ليُثبتَ احتمالَ تأثيرِ الكنيسةِ السريانيةِ في نشرِ المسيحيةِ في الجنوب العربي، إذ وجَّهَ كتاباً الى أهلِ نجران في هذا الصدد. فالبيِّنُ في إيمانِ الحنوبيين العربِ في تلكِ الحقبةِ هو التوحيدُ القائمُ على التسليمِ بالإلهِ الأسمى ووصفُ الله بالرَّحمن.

مثّلت المسيحيةُ دوراً بارزاً في الجنوب العربي اوائلَ القرنِ السادسِ الميلادي عندما كانت دولةُ الحميريين ملحقةً بمنطقةِ أكسوم فكان نشاطُها التبشيريُّ يتمحورُ في منطقةِ نجران في شمالي اليمن.

يذكرُ ياقوت الحموي (١١٧٩، ١٢٢٩م) كعبةً في نجران بُني فوقها كنيسةً فَعُظِّمت مضاهاةً لكعبة مكة. وكان فيها أساقفة «معمّون».

المسيحيةُ في نجران:

لعلَّ العلاقاتِ التجاريةَ مع الحيرةِ أوصلت المسيحيةَ الى نجران، حتى غدت حمىً لمن قال بطبيعةٍ واحدةٍ من المسيحيين بعد اضطهادِهم في الدولةِ الروميّة على يدِ الأمبراطورِ يوستينيانوس.

سكنَ نجرانَ بنو حالب تلك القبيلة المسيحية. وكان يحكمُ المدينةَ ثلاثة:

السيِّد : اختصَّ السيِّدُ بمسؤولياتِ شيخ القبيلةِ العربيِّ من تنظيمِ العلاقاتِ الخارجيةِ وعقدِ المحالفاتِ ومراقبةِ التجارةِ وقيادةِ الجيش.

العقيبُ : اختصَّ بمسؤولياتِ الأمن الداخليِّ وترتيبِ العلاقاتِ المدنيةِ بين السكانِ وحراسةِ المدينةِ.

الأسقفُ : فكان المرجع في المسائلِ الدينيةِ وإمامة الصلاةِ.

إنَّ التأثيرَ السريانيَّ كان بالغَ القوةِ في نجران. فالمصادرُ تشيرُ الى رجلِ أعمالٍ يُدعى حنان اهتدى الى النسطوريةِ في رحلةٍ أقامها الى نجران، مما يُلمعُ الى وجودِ مسيحيٍّ مونوفيزي فيها.

غير أن ما حدث في نجران كان اضطهاداً أبادَ قسماً كبيراً من المسيحيين. وتفصيلُ ذلك هو:

أنَّ المنافسةَ اشتدَّت بين اليهودِ والمسيحيين في الجنوبِ العربيِّ فانقلبتْ عداءً مريراً. إنَّ ذا النواس رأى في النصارى من مواطنيه ما يذكّرُهُ بحُكمِ الأحباشِ البغيضِ وعلى الأخصِّ بعد اندحارِه. كان ذا النواس باليهوديةِ يَجْهَرُ فعالنَ ملكَ أكسومَ بالعصيانِ، مما حَمَلَ الأخيرَ على قمعِ الإمتناعِ عن الانقيادِ. ولذلك لمَّا عادَ ذا النواس الى بلادِه مدحوراً ومأخوذاً بكراهيةٍ شديدةٍ حاقدةٍ أوقعَ الضرَّ ثأرياً بالمسيحيين. ويُروى أنَّ ذا النواس دانَ باليهوديةِ

وتسمى باسمِ يوسف أو فنحاص، وهذا الموقفُ الديني قد يكونُ سبباً في اضطهادِ المسيحيين. ولعلَّ اليهودَ حرَّضوا ذا النواسِ ضد المسيحيين انتقاماً من موقفِ الدولةِ الرومية من اليهودِ.

يعطي بعضُ المؤرخين تفسيرا آخرَ للاضطهادِ وهو أنَّ انتشارَ المسيحيةِ قد يؤدي الى تزايدِ قوةِ الروم في اليمنِ، لانَّ التحالفَ بين القسطنطينية والمسيحيين في الجنوبِ العربي سيكونُ في نظرِ ذا النواس تحالفاً طبيعياً.

وفي سنة ٥٢٣ م حَمَلَ ذا النواس على نجران معقلِ المسيحيةِ في الجنوبِ العربيِّ في الحربِ حملةً عنيفةً فأصابتهم من ذلك نكراءُ. فصوَّب ذا النواس جيشَهُ الى نجران فوجدَ أهلَ نجران بسورِ المدينةِ متحصِّنين فما كان أمامه سوى التحاولِ والخداع. وفي نزوعِه الى الخديعةِ عاهدهُم بالحمايةِ لقاءَ الخضوعِ والإستسلامِ، لكنَّه نكثَ اليمينَ من بعدِ عهدِه. وهكذا لَمَّا رضي أهلُ نجران بالوعدِ والمعاهدةِ دخلَ المدينةَ وكأنه صلح لهم، غير أنه نقض العهدَ مفوِّضاً اليهم الاختيارَ بين المروقِ من معتقدِهم المسيحي أو الموت.

تذكرُ بعضُ المراجع أنه طلبَ منهم إعتناقَ الدين اليهودي أو أن يعترفوا بأنَّ يسوعَ هو مجردُ انسانٍ . ويفسرُ بعضهُم ذلك بأنه تخيير بين اليهوديةِ والنسطورية، لأنَّ النسطوريين ساندوه في الحربِ ضد الحبشة. ولمَّا اختاروا الموتَ على المروقِ حَفَرَ الخنادقَ وأشعلَ النيرانَ فيها طارحاً إياهم طعاماً للهيبها. ولعلَّ قولَ القرآن الكريم:

«قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود، إذ عليهم قعود، وهم على ما يفعلون شهود» (سورة البروج ٨٥ ، ٤ ،٧) إلماع الى ما حدث.

وتشيرُ المصادرُ الى أنَّه أسلمَ أكثرَ من خمسةِ الآفِ مسيحي الى حدِّ السيف وعلى رأسِهم حارث بن كعب، أي القبيلة العربية التي هي بطن من مذحج من كهلان من القحطانية. وهؤلاء همُ الذين وَصَفَهُم القرآنُ الكريمُ بالمؤمنين ولعنَ أصحابَ الإخدودِ الذين شهدوا المُحرقةَ. من ثمَّ تابعَ ذا النواس اضطهادَه فعذَّبَ بعضَهم وأذاقهم ضرَّاءَ بطشه هادماً دمَ الأساقفةِ والقسوسِ وأهلِ الإيمانِ ومُمعناً في إسقاطِ الكنائسِ وحرقِ نسخِ الكتاب المقدس.

أمَّا سيدُ المدينةِ واسمُه الحارث والذي لقَّبُه المؤرِّخون العرب بعبدِ الله بن الثامر فقيِّد بالسلاسلِ مع أمراءِ المدينةِ. فجاءَهُم بالوعيدِ داعياً إياهم الى المروقِ عن إيمانِهم قائلا:

«ليس اللهُ جسماً ولذلك لا يمكنُ قتلُه أو صلبُه. فلا تعبدوا يسوعَ كما تعبدون اللهَ بل اعبدوه كإنسانٍ فقط ... ».

ولمَّا فضلوا الموتَ على إنكارِ الوهةِ المسيح قطعَ رؤوسَهم. ثمَّ أخرجَ رفاتِ الأسقفِ بولس من القبرِ وحرقَ عظامَه وأذراها في الهواء.

لم تكنْ زوجةُ سيِّد المدينةِ وزوجاتُ الأمراءِ اقلَ ايماناً بالمخلصِ فلقينَ الموتَ ضاحكاتٍ مسروراتٍ بالإستشهادِ. ويُقالُ إنَّ روما زوجةَ أحدِ الأمراءِ حضرت مع ابنتيها وقد أبسنَّ إبساناً أمامَ ذا النواس فثبتنَ في الإيمانِ أمام غضبِه. فأمرَ بقتلِ الصبيتين بمرأى من أمِهما ثمَّ أكره الأمَ ان تشربَ من دمِهما. وبعدها قطعَ رأسَها فماتت بحدِّ السيفِ. وفي كتابٍ محفوظٍ يقولُ ذا النواس:

«أحلفُ بإلهي أنني أغتمُّ حينما أفكِّرُ في جمالِها وجمالِ ابنتيها».

لقد أرسلَ يعقوب السروجي اسقفُ بطنانَ والشاعرُ السريانيُّ الكبيرُ (ت ٥٢١م) كتابَ تشجيعٍ وتعزيةٍ الى مسيحيِّ نجران مدونٍ بالسريانية، مما يدلُّ على أنَّ السريانيةَ كانت متداولةً في الجنوبِ العربيِّ الى جانبِ العربيةِ.

أما الأمبراطورُ الروميُّ يوستينوس فأرسلَ وفداً برئاسةِ احدِ الأساقفةِ وقسٌّ شهيرٍ يُسمى إبراهيم الى ملكِ الحيرةِ للكفِّ عن محالفةِ الفرسِ. وأثناءَ وصولِ الوفدِ الى خيمةِ المنذرِ صادفَ وصولُ رسولِ ملكِ حمير ليخبرَ المنذرَ بما حدثَ في نجران. ولمَّا سمع الأسقفُ هذه الأخبارَ كتبَ الى الأمبراطورِ واصفاً ما سمع وحاثاً إياه على نجدةِ المسيحيين العرب.

ومما جاءَ في الطبري أنَّ دوس ذا ثعلبان أفلتَ ولجأَ الى أمبراطورِ الرومِ ناقلاً الى أسماعه ما فَظُعَ الأمرُ وما أشتدت بهم شناعةُ التَّنكيلِ فاستَنصَرَه على ذا النواس، فقال له صاحبُ القسطنطينية يوستينوس الأول:

«نأتِ بلادَكَ عنا فلا نقدرُ أنْ نتناولها بالجنودِ، ولكنّني سأكتبُ الى نجاشي الحبشة (كِلب الاصبحا كما ذكرته النقوش) وهو أقربُ ملوكِ النصرانيةِ الى بلادك» .

فَبَعَثَ صاحبُ الحبشةِ معه سبعين الفاً من الحبشةِ وأقرَّ عليهم رجلاً منهم يُقالُ له أرياط ابنُ أخي ملكِ الحبشةِ. فركبوا البحرَ الأحمرَ حتى نزلوا بساحلِ الجنوبِ العربيِّ . فانتصرَ الأحباشُ مرتين:

اولاً سنة ٥٢٣ م وثانية سنة ٥٢٥ م بعد أنْ أحرقَ قائدُهم المراكبَ وخاطبهم قائلا:

«يا رجالَ الحبشةِ العدو من أمامكم والبحرُ من ورائكم فاختاروا لانفسِكم الموتَ أو النصرَ»،

ولـمّا رأى ذا النواس أنّه لا طاقةَ له بالأحباشِ رَكِبَ البحرَ معترضاً اياه فاقتَحَمَه فكان آخرَ العهدِ به. غير أنَّ بعضَ المصادرِ الأخرى تذكُرُ أنَّ الامبراطورَ الروميَّ أمَدَّ النجاشيَّ الحبشيَّ بأسطولٍ لنقلِ الجيوشِ عبر البحرِ الأحمرِ فأغارا على ذا النواس فاكتسحاه بميسورهما فيما لاقى ذو النواس معسورَه إمّا مُلقياً بنفسه الى التهلكة أو مصروعاً بالمنيةِ في المعركة. ثمَّ احتلَّ أرياطُ العاصمةَ ظفار، فاصبحت بلادُ حمير تابعةً لملكِ الحبشة.

يجدرُ بالباحثِ أن يُشيرَ الى بعضِ نتائج هذا الإضطهادِ على المسيحيين في الجنوبِ العربيِّ من أهمِها : تهديمُ الكنائسِ واستشهادُ العديدِ من أهلِ الإيمانِ ومن بينهم عدد من الأساقفةِ نعرفُ منهم بولس الأول وبولس الثاني. فبعد المقاومةِ الصلبةِ في نجران فضّلَ الكثيرون الموتَ على المروقِ من الإيمانِ. ومن بين الذين ألقوا في النارِ شخصيات مهمة مثل الحارث أمير نجران ورحيمة إحدى السيدات البارزات في نجران.

نهضة دينية في الجنوب العربي:

بعد الإضطهادِ جاءَ الإستقرارُ بنشاطٍ خفَّ له وجدٌ فيه النجاشي الحبشي مستنهضاً المسيحيين للبناءِ الدينيِّ وماحقاً الرِّجسَ منَ الأوثانِ. فعُرِفَ عهدُهُ بعهدِ التشييّد والتقويض. لقد جَعَلَ عملَ الوثنيين في الجنوبِ العربيِّ هباءً منثوراً، فأتى على الهياكلِ الوثنيةِ جاعلاً أياها حطوماً، وأسقطَ هياكلَ اليهودِ لتكونَ هدماً الى جانبِ قصورِ الملوكِ الحميريين.

ولإطلاقِ المسيحيةِ من كبوتِها بادرَ النّجاشيُّ الى عقدِ نتائجِ حملتِه جملةً وتفصيلاً في نهضةٍ دينيةٍ أرسَلَها في الجنوبِ العربيِّ بتنظيمِ الجهازِ الكنسيِّ وترميمِ الكنائسِ وبنائها. والشيءُ البارزُ الذي توخّاه من وراءِ تلكَ الحملة الدينيّة هو إعادةُ المرتدين الى الصراطِ المسيحيِّ على وجهٍ يكونون فيه أكثرَ رسوخاً في الإيمانِ، وكذلك تنصيرُ الجنوبيين العرب. فأخذَ يطلبُ من جوستين أن يرسلَ شيوخاً وأساقفةً لإدارةِ الكنيسةِ التي أخذت تنالُ العافية. لكنّه، وذلكَ وفق المؤرخين المونوفيزيين أمثال يوحنا الأفسسي (٥٠٧ م، ٥٨٦ م) وميخائيل السوري (١١٢٦، ١١٩٩ م) حاول اجتذابَ عددٍ من الأساقفةِ المونوفيزيين من الامبراطورية الروميّة دون التوصلِ الى النجاحِ المُرتجى. لكنّه ما انفكَ مذ قضى على ذا النواس يعملُ في حقلِ بناءِ الكنائسِ فزيّنَ الجنوبَ العربيَّ بعددٍ من كُبرى الكنائسِ أهمُّها:

كتدرائيةُ القيامةِ وكنيسةُ القديس مريم وكنيسةُ الرسلِ الأصفياءِ في مدينةِ ظفار عاصمة الأمبراطورية الحميرية ومحطةِ تُجّارِ البخور.

كتدرائيةُ القيامةِ وكنيسةُ القديسةِ مريم وكنيسةُ الشهداءِ الأخيارِ في نجران مَعقِلِ المسيحيةِ العربيةِ في شمالي اليمن وحاضرةِ الشهداءِ من بني الحارث بن كعب أصحابِ الكعبة في نجران. ويُقالُ إنه نقشها بالذهبِ والفضةِ والفسيفساءِ وألوانِ الأصباغ وصنوفِ الجواهرِ. ونصبَ فيها صلباناً ومنابرَ من العاج والآبانوس.

كنيسةُ الصعودِ وكنيسةُ القديسِ يوحنا المعمدان وكنيسةُ الوليِّ توما الحواري في قانع المرفأِ الرئيسِ على المحيطِ الهندي.

بذلك جَعَلَ النجاشيُّ الحبشيُّ المسيحيةَ ديناً متحليًا بالتوزع والانتشارِ في الجنوبِ العربيِّ بعد التضامِ القسريِّ، غير أن بعضاً من الخلايا الوثنيةِ واليهوديةِ بقيت فاعلةً فيه ردحاً من الزمن.

ولما قضى كالب مهمتَه رَجَعَ الى الحبشةِ بعد أن أسلَمَ أمرَ الجنوبِ العربيِّ الى أبرهة الأشرمِ. كان أبرهةُ مسيحياً ذا رتبةٍ عاليةٍ في الجيشِ الحبشيِّ. وعندما حصلت فتنة بين الجند ورؤسائهم، اقترحَ العقلاءُ من الجيشيين أن يقتصرَ القتالُ على المنازلةِ بين الزعميين أرياط وأبرهة. كان أبرهةُ رجلاً قصيراً لحيماً وأرياطُ رجلاً طويلاً قوياً. وعندما وقفا للنزالِ جرح أرياطُ خصمَه في أنفه (لذلك لُقّب بالأشرمِ) ، فهجم عبدُ أبرهة وقتلة بالسيفِ. ولمّا رأى الجيشُ أنّ قائدَه قُتلَ انضمّ الى جيشِ أبرهة، فصار أبرهةُ الحاكمَ العامَ. ولقد انتهى أبرهةُ الى إعلانِ شبهِ استقلالٍ ذاتيٍّ على المنطقة.

قبلَ أنْ نأتيَ بالأحداثِ على ولائِها لا بُدَّ من التوقّفِ قليلاً عند ما تَدُلّ الأحداثُ على الوجودِ المسيحيِّ وضعاً واستنتاجاً. انتقالاً من المؤثّرِ الى الأثرِ ينبغي سوقُ بعضِ الأبينةِ عن الوجودِ المسيحيِّ في الجنوبِ العربيِّ:

اولاً ، وجود مسيحيّ فاعل في الجنوبِ العربي قبلَ الإضطهادِ النّواسي .

ثانياً ، نهضة مسيحية يتعذرُ نشؤوها بتطورٍ طبعيٍّ أو بتأثيرٍ من حُكمٍ مُناوء.

ثالثاً ، لا محيدَ عن باعثٍ قويٍّ يَبني الوجودَ المسيحيَّ في المنطقةِ إلا وهو المحركُ الحبشي، ومن ورائه الدعمُ الروميُّ.

رابعاً ، إن عاقبةَ ذلك كان إقدامُ ذا النواس على طردِ الأحباشِ وتدميرِ النهضةِ بالإضطهاد.

خامساً، لعلَّ الولوجَ الحبشيَّ الى الجنوبِ العربيِّ قد تمَّ زمنَ حكمِ عبد كلال الذي

كان على دين عيسى بقيم.

غير أنَّ الإضطهادَ عقبهُ بعضُ الإزدهارِ كما أشرنا سابقاً. فالمشرفون على الجنوبِ العربي من الأحباشِ أفلَحوا في إنشاءِ مزارٍ دينيٍّ تتوارِدُ اليه القبائلُ فتنسى معبدَ الحجاز. ولذلك كتبَ أبرهةُ الى النجاشيِّ يقولُ:

«إنني بنيتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ مثلَهَا لملكٍ، ولنْ أنتهيَ حتى أصرفَ اليها حاجَ العرب».

فلمَّا تناقلَ الأعرابُ كتابَ أبرهة غَضِبَ رجل من فُقَيم وهي قبيلة تنتسبُ الى عبادةِ الكعبةِ وآخر من بني مالك فخرجا حتى أتيا الكعبةَ أو القليسَ (تعريب الكنيسة) فدنَّساها .ولعلَّ حقيقةَ الأمرِ تعودُ ، في نظرِ بعضِ الباحثين، الى حسدِ قبيلةِ قريش لمَّا رأت أنَّ عددَ الحجاج تضاءلَ وأن كسبَهم أصبحَ قلاً. فصمّمت على أنِ تجعلَ مشروعَ أبرهة يحبطُ، فأعطت رشوةً لمن قدرَ على أنْ يجعلَ المكانَ متدمّناً فأسقطَ فيه الأبعارَ ليلاً.

كان تدمّنُ القليسِ باعثاً على ثورةِ القبائلِ الشماليةِ بحكمِ أبرهة. وكان أبرهةُ أرسلَ واليَ قبيلةِ مضر مع شقيقِه موفدَين الى قبيلةِ كنانة لحملِهم على الحجِّ الى القليسِ عوضاً عن القليسِ، لكنَّ أهلَ تهامة رموا الواليَ بسهمٍ قاتلٍ ففرَّ أخوه.

فلمَّا عرفَ أبرهةُ بالأمرِ حلفَ في هدمِ الكعبةِ في مكة. فقامَ بحملةٍ على مكة عام ٥٧٠(أو ٥٧١) عُرفت بسنةِ الفيلِ لأنه استخدمَ لاولِ مرةٍ الفيلةَ في المعركة. لكنَّه لم يُفلِحْ ففتكَ أهلُ مكة بجيشِه فتكاً. ولذلك جاءَ في القرآنِ قوله:

« ألمْ ترَ كيفَ فعلَ ربُّك بأصحابِ الفيلِ ، الم يجعلْ كيدَهُم في تضليلٍ وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجيلٍ فجعلَهُم كعصفٍ مأكولٍ » (سورة الفيل).

وتفاصيلُ ما حدثَ أنَّ بعضاً من القبائلِ العربيةِ اعترضت تقدمَ جيشِ ابرهة فقرَها قهراً.